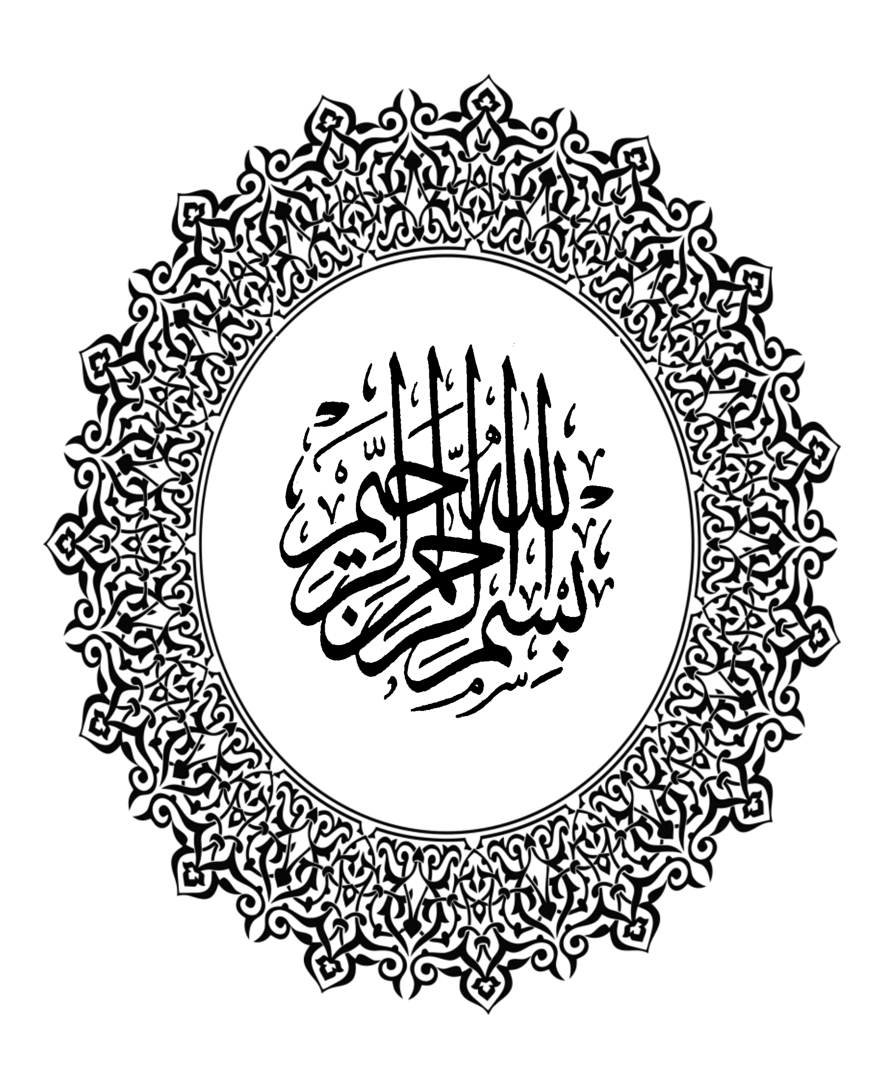

بيان الكسب


بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

بيان الكسب

للإمــام

(أبى عبد الله محمد بن على بن الحسن الحكيم الترمذى)

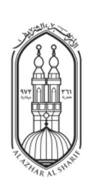
٢٠٥-٣٢٠ هـ

تقديم وتحقيق وتعليق

الاستاذ الدكتور

عبد الفتاح عبد الله بركة

عضو هيئة كبار العلماء



الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

تليفون: ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦

فاكس: ٠٢٢٥٩٣٩٤٦

البريد الإلكترونى:

SeniorsCouncil@alazhar.eg

الموقع الإلكترونى: www.azhar.eg/scholars

العنوان:

ش الأزهر – أمام مسجد

سيدنا الإمام الحسين – القاهرة

*****

فهرست الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية:

بيان الكسب

أ. د / عبد الفتاح عبد الله بركة

ص: ١٤ × ٢٠ سم

عدد الصفحات: ١٤٠

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠ م

متعهد الطبع:

مجمع مطابع الأزهر الشريف

تليفون: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

فاكس: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

****

تصميم الغلاف:

إسماعيل عبده محمد علي

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٧٢٩٠

افتتاحية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسولِ اللهِ، وآلِه وصحبِه ومَن والاه ... وبعد:

فإن مركزَ اتزانِ الكرةِ الأرضيةِ ـ جغرافيًّا وفكريًّا ومجتمعيًّا ـ هو العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ؛ الذي يستندُ إلى **(مصر الأزهر)** وبها قِوامُه؛ يأخذُ منها ويتلقى عنها؛ جيلاً وَراءَ جيلٍ.

وبريادة فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ وتوجيهاته؛ **يقوم الأزهر الشريف** بأداء واجبه من خلال منهاجه الوسطي الأصيلِ، وعالميةِ رسالتِه وعِلميتها؛ فيعمل على:

- إنارةِ العقولِ وَهِدَايَتِهَا، والعملِ على رقيِّها ويقظتِها.

- وقايةِ المجتمعاتِ من انحرافِ الأفكارِ وتشددها، وباطلِ الآراءِ وساقِطِها، ومرذولِ العادات ودخيلِها.
- وقد وسعت وسطيته وعالمية رسالته: تنوعَ الفُهومِ، واختلافَ العاداتِ، وتعدُّدَ الثقافاتِ؛ وصار ما تُصْدِرُهُ أرضُ الكنانةِ محطَّ الأنظارِ، ومبعثَ القدوةِ والاحتذاءِ، وبخاصة فيما يمسُّ الشرعَ الشريفَ.

وتأتي هيئةُ كبارِ العلماءِ وهي قمةُ الجهازِ العلمي في الأزهر الشريف؛ لتقوم بدورها في هذه السبيل، مِن:

- تجليةِ صحيح الدين، وبيان وسطيته واعتداله: عقيدة وشريعة وأخلاقًا.
- تصحيحِ المفاهيم، وردّ الشبهات، وكشفِ عوارِ الأفكارِ المنحرفةِ والمتطرفةِ.
- معالجةِ قضايا العصر ومشكلاته.

- تلبيةِ حاجات المجتمع، وإجابة تساؤلاته.
- ترسيخِ قيم التعايش والمواطنة، ودعم رفعة الأوطان ورُقيِّها.

ويتجلى طرف من ذلك في هذه الإصدارات للسادة العلماء الأجلاء؛ أعضاءِ الهيئة -ومَن في درجتهم- قدامى ومعاصرين.

وبين أيدينا درة من درر التراث الإسلامي وهي كتاب «بيان الكسب» للحكيم الترمذى، بتحقيق وتعليق وتقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/عبد الفتاح عبد الله بركة عضو هيئة كبار العلماء، وذلك ما نطالعه في الصفحات التالية.

وبالله تعالى التوفيق

أ.د/ صلاح محمود العادلي

أمين عام الهيئة



الحمد لله، وليِّ الحمد وأهله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وبعد:

فبين يدينا الآن رسالة قصيرة من رسائل الحكيم الترمذي -وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي- الذي برز في القرن الثالث الهجري كعلم شامخ من أعلام التصوف المتميزين، وقد كتبَتْ عنه كتب التراجم بتوقير شديد، ولكن باختصار شديد فذكره الكلاباذي بين من صنف في علوم المعاملات.

كما ذكره السلمي بأنه من كبار مشايخ خراسان، وأن له التصانيف المشهورة، وأنه كتب الحديث الكثير ورواه، وذكره

أبو نعيم الأصبهاني بأنه مستقيم الطريقة، تابع للآثار، يرد على المرجئة وغيرهم من المخالفين، وذكره القشيري بأنه من كبار الشيوخ، وله تصانيف في علوم القوم، إلى غير ذلك مما يمكن الرجوع إليه في كتب التراجم المختلفة.

وكتبه ورسائله في التصوف تعتبر من أمهات كتب المتصوفة على الرغم من تقدم عصرها، كذلك نظر إليها الصوفية، وكذلك نظر إليها الباحثون في التصوف، فهذا -مثلا أبو الفرج بن الجوزي يصف أحد كتبه بقوله: "وقد صنف لهم – أي للصوفية -أبو عبد الله محمد بن على الترمذي كتابا سماه: (رياضة النفوس)، وهذا أيضا ابن عربي، نجده قد أفاد من هذه المصنفات، حتى عقد فصلا طويلا في كتابه (الفتوحات المكية) للإجابة عن أسئلة أوردها الحكيم الترمذي في كتابه (ختم الأولياء)، بل أفرد لذلك كتابا مستقلاً سماه (الجواب المستقيم

عما سأل عنه الترمذي الحكيم)، وذلك زيادة في العناية به، واعترافا بالقيمة المستكنة في طوايا كلامه وتصانيفه.

لم يكن الحكيم الترمذي -في عصرنا هذا-مجهول المكانة عند أهل التصوف، لكنه كان غامض المكان عند الباحثين، حتى اتجهت أنظارهم إليه قليلاً قليلاً. وكلما ظهر أثر من آثاره زاد من اجتذاب الأنظار إليه، بحيث أصبح من الواضح لدى جميع الباحثين أن أهميته لا تقل عن أهمية أعلام التصوف المعدودين.

ولقد أشار إلى ذلك أربري في كتابه (التصوف Sufism) حيث قال: (إن القرن الذي أبرز المحاسبي والجنيد والحلاج قدم للتصوف الإسلامي -ممن أسهموا في بناء صرحه-من ليسوا أقل أهمية إلا بوجه من المقارنة، وليس الحكيم أقل أهمية من



هؤلاء) كما ظهر ذلك في بعض البحوث الحديثة المتخصصة أتمَّ ظهور[1].

وقد اختلفت كتب التراجم في تحقيق تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته، ويميل الباحثون إلى ترجيح أن يكون الحكيم قد ولد نحو عام خمسة ومائتين، وأن يكون قد عمر مائة وخمسة عشر عاما، وأن يكون قد توفي نحو عام عشرين وثلاثمائة للهجرة.

ولقد نشأ الترمذي في مدينة ترمذ، وكانت مدينة من أمهات المدن، بل كانت أجل مدينة على نهر جيحون في ضفته الشرقية، بإقليم ما وراء النهر، وكانت ميدانًا فسيحًا ومجالًا خصبا لعدد كبير من الفقهاء والمحدثين، وأرباب المذاهب والآراء، وهي التي أنجبت أمثال أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة

---

(١) منها كتاب الدكتور عبد المحسن الحسينى رحمه الله عن (المعرفة عند الحكيم الترمذي)، ومنها كتاب المحقق عن (الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية).

الترمذي، صاحب كتاب الشمائل، وصاحب الجامع أحد الكتب الصحاح الستة.

ثم إنه نشأ في بيت علم، فأبوه علي بن الحسن بن هارون، الترمذي المحدث الذي حدث ببغداد، فلا غرو أن اتجه الحكيم إلى العلم منذ صغره، فأحاط بكثير من العلوم.

لقد بدأ منذ بلغ من السن ثمانية يدرس العلم، ويدأب عليه في المنشط والمكره، ووفق في حداثة سنه لأن يجمع بين علم الآثار وعلم الرأي، وظل منصرفًا إلى تحصيل هذين العلمين حتى قارب سنُّه السابعةَ والعشرين، فحصَّل كثيرًا من الحديث والفقه، ثم توجه إلى مكة لأداء الفريضة، وهناك بدأ يتجه اتجاهًا مختلفًا، لقد بدأ يتخفف من الاتجاه العقلي الجاف بعد أن حصل منه ما حصل، ووعي منه ما وعى، ويستزيد من الاتجاه الروحي السامي، حيث أخذ نفسه بالرياضة ودقائقها، دون هوادة أو



تهاون، وقد طلب من يعينه على ذلك من الإخوان فعزَّ عليه، لكنه لم ييأس من نفسه، بل لجأ إلى الخلوة والعزلة واجتناب الخلق، واستمر على ما هو عليه من رياضة ومحاسبة، وهو في هذه الأثناء يرى من الرؤى ما يشجعه ويثبته على طريقته، حتى وفق لبعض الإخوان، فكانوا يجتمعون بالليالي يتناظرون ويتذاكرون، ويدعون ويتضرعون.

ويبدو أنه كان خلال هذه المناظرات والمذاكرات تستجمع سابق تجربته في ميدان تحصيل العلم، ومعرفته بما كان يدور في مدينته - وهي جزء من العالم الإسلامي- من آراء ومذاهب تختصم وتفترق، وما شاهده خلال تجاربه الصوفية من دعاوى ومدعين وهداة صادقين، فكان لا يتحرج من الحديث عن هذه التجارب، متطرقا أو منساقا منها إلى نقد قاسٍ لعلماء زمنه في سائر النواحي، سواء في علم الرأي أو علم الآثار، أو حتى في

السلوك الصوفي لبعض المتصوفين، بل في السلوك الاجتماعي، في كثير من نواحي المجتمع مما أحفظ عليه الكثيرين، فتعرض لحملة قاسية، وكثرت القالة في شأنه، وجعلوا جميعا يرمونه بالهوى والبدعة، حتى أصبح لا يجترئ أن يرفع رأسه خوفًا من العامة.

ولقد ساعد ذلك على إخلاص خلوته، وإحكام عربيه، والصدق في التجائه إلى ربه، ولم يستمر الأمر على ذلك، بل هاجت بالبلاد فتنة اضطر فيها جميع من كانوا يؤذونه ويتقولون عليه إلى الهرب، ولم يعد هناك من يذكر الناس صباح مساء بهذه الأقاويل، لذلك لم يلبث الناس أن اجتمعوا عليه ومعهم مشيخة البلد، يكلمونه في القعود لهم، وألحوا عليه في ذلك حتى أجاب، وبرز للناس، فبرز فضله وانتشر ذكره واجتمع الخلق

عليه، وتزايدوا حتى فاضوا عن داره، ومازالوا به حتى قعد لهم في المسجد، وأقبلوا عليه بالتعظيم والتبجيل.

ويبدو أنه في أثناء هذه الفترة ظهرت أسس الفرقة التي ينسبها إليه الهجويرى في كتابه (كشف المحجوب) باسم (الحكيمية) و(الترمذية)، ويقول عنها: "إن مأخذ قولها في الولاية هو الترمذي، ومصداق ذلك ما يقوله الترمذي نفسه عن هذه الفترة، بأنه ظهرت التلامذة، وأقبلت الرياسة والفتن، بلوى من الله لعبده.

وقد دلت أثاره من الكتب والرسائل على شيوع ذكره، وانتشار أمره، سواء بين الخاصة أو بين العامة، بل دلت على اعترافهم بإمامته في بابه، فقد بقيت في مخطوطاته عدة رسائل، كان يجيب فيها على من توجه إليهم إجابة المرشد والمعلم، أو على أقل تقدير إجابة الموضح والمبين.

من ذلك رسائله إلى محمد بن الفضل البلخي، وأبي عثمان سعيد النيسابوري، إلى آخرين لم يرد ذكر أسمائهم فيها، ومن ذلك رسالة بعنوان (جواب كتاب من الري) حيث يخاطب بعض المريدين، ويقول في خلال حديثه: (وقد شرحت هذا كله في كتاب أنفذته إليكم، عنوانه: (سيرة الأولياء) فاطلبه تجد هذا كله فيه إن شاء الله تعالى).

إن من أبرز المبادئ الأساسية في حياة المسلم الكامل أن يتمسك بقدر كافٍ من الزهد في متع الحياة الدنيا وطيباتها، بحيث تصبح له قدرة تامة -أشبه ما تكون بالملكة الفطرية- تمكنه من التحكم في نفسه ورغباتها عندما تعرض له شهوة من الشهوات، أو تثور به نزوة من النزوات يخشى منها على سلوكه أن ينزلق إلى المحرمات أو المكروهات.

يضاف إلى ذلك عنصر يتكامل معه هو عنصر التوكل على الله في كافة الشئون بحيث يجد المرء من ذاته ما يدفعه عن سفساف الأمور إلى معاليها، ويرفعه عن مستوى السلوك السوي إلى مستوى مكارم الأخلاق.

وقد كان سلفنا الأوائل على قدر كبير من الزهد والتوكل كما رسمتهما آيات الكتاب الكريم وأحاديث السنة النبوية المطهرة.

وظل الأمر على ذلك من الناحية العملية التي تعتمد في أسسها النظرية على مبادئ الكتاب والسنة، إلى أن تطور المجتمع الإسلامي بعد عصر الفتوحات وخلال عصر الإمارات الوراثية، ليجد جانب كبير من المجتمع الفرصة واسعة للانغماس في وسائل الترف، وابتداع أسباب المتعة، وفي مقابل ذلك وجد جانب آخر من هذا المجتمع بشعوره الديني المرهف ضرورة التمسك بهذين المبدأين الأساسيين في الزهد والتوكل

على الله، وتمثل ذلك أوفى تمثيل في طائفة الصوفية حتى أصبح ينسب إليها ويدل عليها، كأنما صار الزهد والتوكل على الله من شأن الصوفية وحدهم، مع أنه مبدأ إسلامي عام، يتوجه الخطاب به إلى الكافة، كما يعرف ذلك من يتلو القرآن، ومن يقرأ كتب السنة والحديث، ولذلك فإن الزهد والتوكل قد أخذ على أيدي المتصوفين صورة تتناسب مع أحوالهم، وما يمارسونه من رياضات نفسية ومجاهدات روحية.

لقد كان الزهد يُمارَس بصورة معتدلة، تتناسب مع ما كان عليه المسلمون في بدء أمرهم من قلة ذات اليد، فلما أقبلت الدنيا عليهم، وانغمس البعض فيها حتى شحمتي أذنيه جعل الصوفية في مقابلهم يبالغون في زهدهم، ويستقصون دواعيه ومظاهره ونتائجه، حتى سهل عليهم القول بالزهد في الدنيا

بأسرها لكراهتهم لها، وكراهتهم لكل ما يتعلق بها، أو يصدر عنها.

وقد ذكر القشيري في رسالته أن الحسن البصري قال[١]: الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها، وتبغض ما فيها.

وقد وصل استقصاؤهم لمعنى الزهد إلى حد إنكار وجود زهد على الحقيقة، لأن الزهد لا يطلق على الحقيقة إلا إذا كان موضوع الزهد حلالًا مرغوبًا فيه، وليس في الدنيا بأسرها مما يمكن أن يكون حلالًا صريح الحل، ويكون في نفس الوقت مرغوبًا فيه من رجل كامل.

وقد روى القشيري عن أبي حفص قوله[٢]: "الزهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا[١]، فلا زهد.

(١) الرسالة القشيرية صـ٩١.

(٢) الرسالة القشيرية صـ٦١.

وهذه المبالغة في الزهد جعلتهم يكتفون في حياتهم بأقل القليل، بل بما هو دون الكفاية، حتى تعوَّد الكثيرون منهم على البقاء أيامًا -تقل أو تكثر- دون طعام أو شراب.

لكن البدن وحياته، يدفع صاحبه ولا بد للحصول على ما يُبقى أنفاسه ويسد رمقه مهما يكن قليلا، وهو إذا أهمل -زهدًا- طلب ما يزيد على الحاجة الضرورية لبقاء حياته، فإنه لا يستطيع أن يهمل طلب هذا القدر الضروري.

وهنا يظهر العنصر الآخر، وهو عنصر التوكل على الله، ولم يكن التوكل عند المسلمين الأوائل يتعارض مع الاضطراب والحركة والسعي، وطلب الرزق، لكنه مع مرور

---

(١) المقصود بإنكار وجود الحلال في الدنيا أن رغبات النفس ومشتهياتها مذمومة فالطيبات وإن كانت حلالا أباحها الله تعالى لكن تناولها بشهوة النفس يصبغها بصبغة شيطانية لا تكون معها في مرتبة الحلال الذي أحله الله.

الوقت، ومع المبالغة والتدقيق أصبح ينظر إليه في أول مقاماته – كما يروي القشيري عن سهل بن عبد الله [١]– بحيث يكون العبد بين يدي الله –عز وجل– كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف شاء، لا يكون له حركة ولا تدبير.

فهل يتم التوكل بهذا المعنى مع القيام بالكسب وطلب القوت؟ أم أن العمل لكسب المعاش يتعارض مع الثقة المطلقة في الله، والاعتماد الكامل عليه؟

لقد وجدنا من يقتصد فلا يرى مانعًا في التوكل يمنع من طلب الكسب، ولا قادحًا من طلب الكسب يقدح في التوكل، كما وجدنا من يتشدد، مع تفاوت في درجات هذا التشدد، حتى إلى حد ذم الكسب، وإسقاط رتبة من يقوم به من المريدين والسالكين.

---

(١) الرسالة القشيرية صـ٨٣.

وإذا ضربنا صفحًا عن ذكر الصدر الأول من المسلمين، ووصلنا إلى الوقت الذي بدأت تثار فيه هذه القضية، وجدنا إبراهيم بن أدهم يقول بطلب الرزق ويعبر عن الكسب بقوله: "عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال والنفقة على العيال[١].

ثم بدأ التشدد يظهر في أقوال غيره شيئًا فشيئًا، فيقول الفضيل بن عياض: "أبي الله أن يجعل أرزاق المتقين إلا من حيث لا يحتسبون"[٢].

فإذا وصلنا إلى شقيق البلخي (١٩٤هـ) وجدنا الأمر يزداد تدقيقًا، وقد تعرض أبو العلا عفيفي لهذه النقطة ويحسن أن

---

(١) السراج: اللمع صـ٢٩٠.

(٢) السلمي: طبقات الصوفية صـ١٤، وهو بذلك يشير إلى الآية الكريمة في سورة الطلاق: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ الطلاق: ٢.



نورد هنا وجهة نظره، يقول: (فنرى شقيقًا البلخي المتوفي سنة١٩٤هـ وهو من أفضل تلامذة إبراهيم بن أدهم يفيض في الكلام عن التوكل الصوفي، والرجوع إلى الله في كل شيء).

يرى شقيق أن التوكل معناه (طمأنينة النفس إلى موعود الله)، فإذا أردت أن تعرف مقدار صدق الزاهد في توكله، فانظر بأي الأمرين يأخذ، أبما وعده الله أو بما وعده الناس؟

وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يزيد في حياته، أو يغير من طبعه، فكيف يستطيع أن يزيد في رزقه؟ ولماذا يتعب نفسه في اقتناص أشباح زائلة؟ أو يتكالب على المكاسب التي قلما تخلص من الشبهات؟!

أدت هذه الفكرة العميقة في الجبرية بشقيق إلى القول بالتسليم المطلق لإرادة الله، والإذعان التام لقضائه وقدره، والتعطيل التام للإرادة الإنسانية، والرضا التام بما هو مقدر في علم الله،

وكان من نتائجها قولان، كان لهما أثرهما البالغ في تطور التصوف بعد عصر شقيق.

أولهما: ترك الكسب، لأن كل المكاسب مسممة.

وثانيهما: تفضيل الفقر على الغني[١]. أهـ.

وقد أفاض شقيق في هذه المعاني، ولكني أود أن أورد نصين نقلهما له السلمي في طبقاته[٢]، يتبين منهما كيف يرى أنه ينبغي للمرء أن لا يأخذ إلا عندما يخشى أن يكون عاصيًا بالترك، وذلك إنما يكون عند حالة الاضطرار التي تبيح تناول الميتة.

---

(١) الملامتية والصوفية صـ٣١-٣٢.

(٢) طبقات الصوفية للسلمي (صـ٦٤).

فقد روى شقيق بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به)[١].

وسئل: (بأي شيء يعرف الرجل أنه أصاب القلة؟ قال: بأن كل شيء يأخذه من الدنيا، يأخذه في حالة يخاف - إن لم يأخذه - أن يأثم).

وقد نشر هذه المقالة من بعد تلميذه حاتم الأصم (٢٣٧هـ) وأحمد بن خضرويه (٢٤٠هـ) ومحمد بن الفضل البلخي(٣١٩هـ).

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال- كتاب الأخلاق (٣/٢٣٦/ح٦٣٢٥) وعزاه إلى ابن عساكر في التاريخ من طريق أبي هاشم الأيلى عن أنس، بهذا اللفظ، وفيه زيادة: "أُفٍّ للدنيا وما فيها من البليات حلالها حساب وحرامها عذاب"، وأخرجه كذلك أبو عبد الرحمن السلمي في طبقاته من طريق شقيق بن إبراهيم الأزدي عن أبي هاشم الأيلى عن أنس، به. طبقات الصوفية للسلمي(صـ٦٤).

وأما أبو سليمان الداراني(٢١٥هـ) فإنه مع إسقاطه درجة من يسافر في طلب معاشه، لا يرى له أن يتفرغ للعبادة، بينما يتولى غيره أمر معاشه روى ابن الجوزي[١]عنه أنه قال: "إذا طلب الرجل الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا.

وروى عنه أبو نعيم [٢] قوله: (ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد، ويتخذ ذو النون من طلب العارف المعاش دليلا على أنه لا شيء [٣].

---

(١) تلبيس إبليس صـ٢٨٥.

(٢) الحلية (٩/ ٢٦٤).

(٣) السراج: اللمع صـ٢٦١.

كذلك الأمر عند أبي تراب النخشبى، فقد ذكر القشيري (أنه نظر إلى صوفي من تلامذته قد مد يده إلى قشر البطيخ، وقد طوى ثلاثة أيام، فقال له: تمد يدك إلى قشر البطيخ أنت لا يصلح لك التصوف، الزم السوق).

ويظل الأمر على مثل هذا التشدد، ثم يبدأ في التراخي، ويعود إلى شيء من الاعتدال بعد ذلك، ولعله يبدأ عند سهل التستري (التوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته) (١).

من هذا يتبين أن مسألة الكسب والسعي في طلبه كانت من المسائل التي شغلت جانبا من الفكر الصوفي، وكان لها تأثير واسع المدى في الجماهير المسلمة، لا نزال نلمس آثارها في المجتمعات الإسلامية.

---

(١) القشيري: الرسالة صـ٨٤.

وقد تركت مختلف الأقوال في هذا المجال بصماتها واضحة على الطوائف التي تمسكت بها، وسادت منها في مراحل التاريخ المختلفة نغمات ذات إيقاع خاص في وجدان الشعوب وتصرفاتها.

ولقد يؤسفنا أن نرى بعض هذه الأقوال كانت تؤخذ في كثير من الأحيان متكأ لمعظم أدعياء التصوف، حيث يفهمونها فهما سقيمًا، ويشيعونها بين العامة دون تقدير لتأثيرها مما تسبب في تكوين عامل من عوامل التثبيط والانحلال.

كما استغلها اسوأ استغلال من اندسوا بين صفوف الأمة الإسلامية من المستعمرين وأذنابهم، بإشاعة جوانبها السلبية السيئة من ناحية، واتهام الإسلام بأنه دين التواكل والكسل والبطالة، والمسلمين بالتراخي والاتكالية وعدم المبالاة، وتشويه صورة الإسلام والمسلمين، في عين المسلمين أنفسهم

خاصة من يستقون ثقافتهم ودراستهم من أساتذة غربيين، ثم في عين غيرهم من الأمم الأخرى التي كان ينتظر منها أن تميل بفطرتها إلى هذا الدين، وترتب على ذلك تنفيرهم من الإسلام بغير علم، وتنفيرهم من المسلمين كما يبدون في مظاهرهم وسلوكهم وتصرفاتهم.

وإذا كانت هذه المسألة بهذا الموضع من الخطورة – في عصرنا– فقد كانت على مستوى مماثل من الخطورة عند أوائل المتصوفة.

هذا والرسالة التي بين أيدينا للحكيم الترمذي، مخصصة لمعالجة هذه المسألة وهذا يدل دلالة واضحة على مدى أهميتها منذ البداية، كما يدل على أنها كانت قد أسيء استغلالها في هذا الوقت المبكر من كثير من أدعياء التصوف، كما أسئ فهمها وإدراكها لدى من نقل عن كبار الصوفية.

وقد ألقى ذلك على أئمة هذا الميدان، وعلى العلماء بصفة عامة مسئولية البحث والتفصيل والبيان لإزالة ما لابسها من لبس، وما أحاط بها من غموض، وما نابها من تأويل وتحريف.

وتعتبر رسالة الحكيم في هذه الناحية وثيقة تاريخية تبرهن بما لا يدع مجالا للشك على أن أئمة التصوف برُءاء من إساءة الفهم الذي جعل من هذه القضية سلاحا يوجه إلى التصوف والمتصوفين.

كما تعتبر فيصلا شافيًا للحكم فيها حتى إن ابن الجوزي البغدادي المتوفي عام (٥٩٧هـ) -وموقفه معروف بالتشدد بالنسبة للتصوف وأهله- لم يستطع أن يبرهن على وجهة نظره في هذه القضية بأكثر أو بأدق مما أتي به الحكيم، وإن زاد عليه الحكيم بتلك السبحات الصوفية العالية.

ويوجد أصل هذه الرسالة في المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الوطنية الظاهرية تحت رقم (١٠٤). وهي تحتوي على خمس رسائل كلها للحكيم الترمذي، وتقع رسالة (بيان الكسب) ثالثة في ترتيب هذه المخطوطة بين الرسائل الخمس ولا نعرف لها نسخة أخرى.

وقد حصلت على نسخة مصورة من هذه الرسالة من معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية.

ووضعت عناوين فصولها بين أقواس معقوفة إشارة إلى أنها ليست من وضع الحكيم الترمذي، وإنما هي من وضعي تيسيرًا على القارئ في حصر الموضوع.

وإذا كان صوت الحكيم يأتينا بهذه الرسالة من خلف ألف عام أو يزيد فإنه يتفق تمامًا مع صوت ابن عطاء الله السكندري (٧٠٩هـ)، ويتجاوب معه في تناسق كامل في حكمة قصيرة من حكمه جمعت خلاصة الموضوع من أطرافه كلها، وقد جعلها

ابن عطاء في صدر حكمه فقال: "إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية [1]"،

وكذلك في كتابه الرائع البديع (التنوير في إسقاط التدبير).

وكما هو الشأن الآن حيث ترتفع الأصوات بالشكوى من هؤلاء المتعطلين المتسكعين -باسم التصوف- حول المساجد والأضرحة والمشاهد المباركة، لا يعملون ولا يضطربون بالسعي على أرزاقهم ومعاشهم متظاهرين بالتنسك والتعبد، ومدعين للزهد والتوكل مكتفين بما تسوقه القلوب الرحيمة، أو النفوس الساذجة إليهم مما قل أو كثر، فيصيرون عالة على أبناء دينهم، ووصمة عار في جبين أهلهم ووطنهم، وسُبَّةً للتصوف والمتصوفين، وللإسلام والمسلمين، كذلك كان الشأن في وقت الحكيم، فقد جاءته نفس الشكوى، بأن قال له قائل: إن بعض

---

(١) الحكم العطائية صـ ٥ الطبعة الثالثة دار السلام ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

المقبلين على أمر الدين تركوا الطلب وقالوا: قد ضمن الله الرزق، وجاء عن رسول الله ﷺ: "إن الرزق ليطلب العبد كما يطلب أجله"(١) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «ها لو لم تأتها لأتتك»(٣) فقعدوا ينظرون الرزق، ووفاء الضامن لهم بذلك.

ومن هنا تبدأ القضية.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه- كتاب الزكاة- باب ما جاء في الحرص وما يتعلق به (٨/٣١/ح ٣٢٣٨) من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُه"، وإسناده صحيح.

(٢) [الطلاق: ٢-٣].

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه- كتاب الزكاة- باب ما جاء في الحرص وما يتعلق به (٨/٣٣/ح ٣٢٤٠) من حديث ابن عُمَرَ قَالَ: جَاءَ سَائِلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا تَمْرَةٌ عَائِرَةٌ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "خذها. لو لم تأتها لأتتك". وإسناده صحيح.

إن هؤلاء يعتمدون على بعض النصوص القرآنية والنبوية التي تؤكد أن رزق المرء لا يجاوزه ولا يقصر دونه، وأنه كالأجل لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، وأنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، وأنه من أجل ذلك كله مضمون مكفول، تكفل به رب العزة، وتوصل هؤلاء من وراء ذلك إلى أن العمل لا قيمة له، وأنه ليس له تأثير حقيقي في اكتساب الرزق، وبالتالي فإنه يستوي من يعمل ومن لا يعمل، فما الداعي لإتعاب النفس والبدن، وما المانع من الكسل وإيثار الراحة؟ وانطلقت القصص، وضربت الأمثال، وراجت مثل هذه الأحاديث بين العامة، حتى أتت ثمرتها المرة المتمثلة في صورة من أشد صور التطرف حيث أصبحت نظرة التقدير بعمق الإيمان وقوته وكماله تزداد كلما أمعن الدعي في ترك الكسب، وإطلاق شعارات التوكل على الله وآيات القرآن الخاصة بالرزق



وضمانه، والتشدق بالأحاديث النبوية، مع إهمال تام للمظهر والنظافة والذوق العام باسم الإمعان في التوكل، فأصبح التوكل إهمالا وعدم مبالاة، وأصبح الزهد كسلا وبطالة، وأصبح النظر إلى ضمان الله وكفالته نظرة إلى ما في أيدي الناس وأرزاقهم.

فهل تؤدي النصوص الدينية -قرآنية ونبوية-حقًا إلى كل هذه النتائج التي يتوصل إليها هؤلاء؟!

لا شك أن في الأمر سقمًا، ولا يمكن أن يكون ذلك متوجهًا إلى الدين فنصوصه متكاملة، لا يستغني بإحداها عن الأخرى بل لابد أن يكون السقم في فهم هؤلاء لهذه النصوص، واختيارهم لبعض النصوص التي تتفق مع أهوائهم، وإغفال النصوص الأخرى التي يعتدل بها الميزان، والعامة في غفلة عن ذلك

فيصدقون ما يلقى إليهم من هذه الأقاصيص، ويتأصل الداء ويستشري ويصبح علاجه صعبًا مستعصيًا.

مما حدا بالحكيم إلى أن يصدر بيانًا للناس يعالج فيه هذه المسألة باسم بيان الكسب.

وإذا كان السؤال الذي وجه إلى الحكيم قد اتخذ هذه الصورة المتحيزة، والتي تُوصل السائل إلى غرضه وهواه، فقد أراد الحكيم أن يبدأ المسألة من أصولها، ويضع لها المقدمات الضرورية التي تجعل الجواب الصحيح المتوازن قريبًا ميسورًا.

فهل صحيح أن ضمان الرزق من الله تعالى يستتبع بالضرورة أن لا يكون للعمل والكسب دخل في تحصيله، أو في وصوله إلى صاحبه؟

وهل صحيح أنه يوجد من البشر من يتولى الله إيصال رزقه إليه دون كدٍّ أو سعي؟

وهل كان ذلك هو موقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم صفوة البشر، وأقرب الخلق إلى الله؟!

وهل صحيح أن الكد في طلب الرزق يتنافى مع الزهد ومع التوكل على الله؟ وهل صحيح أن السعي والاضطراب في طلب المعاش دليل على فقدان الثقة في ضمان الله؟،

مع ما أقسم الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا افترض الله علينا أن نضرب في الأرض، ونسعى في مناكبها، وننتشر في نواحيها من أجل أن نكتسب أرزاقنا؟ وهل يسقط هذا الفرض بمجرد التزهد وادعاء التوكل؟ ومتى يمكن أن يسقط هذا الفرض؟ وهل أسقط الأنبياء -وهم قدوة البشر- هذا الفرض عن أنفسهم؟

---

(١) الذاريات٢٢و٢٣.

ولمن يكون تيسير الرزق إن لم يكن للأنبياء الصالحين؟ وأكثرهم كان يكابد الجوع والحرمان، فما هو هذا التيسير، وما هو معناه؟! إلى غير ذلك من المقدمات التي عالجها الحكيم في بيانه، بحيث تسلم قارئها إلى النتيجة الصحيحة في يسر وسهولة، وتبين خطأ السائل ومن وراءه من المتنطعين وأصحاب الأهواء.

لقد ذكر الحكيم كيف بدأ الكسب بآدم عليه السلام، وهو أبو البشرية جمعاء فقد كان في الجنة مرفوع المئونة، مكفيًا من الطعام والشراب والكسوة والمسكن حسب تعهد الله تبارك وتعالى له بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1].

---

(١) طه: ١١٨و١١٩.

فلما خرج من الجنة توقف هذا التعهد، وأصبح عليه أن يتعب في تحصيل هذه الأربعة تحقيقا لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾(١).

ويتبين من ذلك أن الطاعة تيسر هذه الأربعة، وأن الخروج من الطاعة يكلف المرء مشقة السعي في سبيلها، فكلما كان العبد أطوع لربه كانت مئونة هذا المعاش عليه أيسر.

وإذا وصل الإنسان إلى مرحلة تكون حياته كلها طاعة لله بحيث يذهله الاشتغال بربه في عبادته عن نفسه، وعن التدبير لها، والنظر في شأنها، لم يبعد حينئذ أن يتولى الله تعالى إيصال ما

---

(١) طه:١١٧، وفي الحديث الصحيح - كما حققه شيخنا أحمد شاكر- أن آدم عليه السلام هبط من الجنة، ومعه من (ثمار الجنة، وعلمه الله صنعة كل شيء) راجع تفسير الطبري ط- المعارف١/٣٩٣، الحديث رقم٥٣٧، والحديث قاطع في العمل بما علم، فإنما علمه ليعمل.

كتبه له من الرزق على الكفاية بلا مئونة ولا كد، ذلك لأن مخاطبته حينئذ بالسعي والكد تكون مخاطبة لمن لا يعي لها معنى.

وقد ذكر الله لنا شأن مريم عليها السلام عندما صارت محررة من أمور الدنيا فارغة للعبادة، فقد كانت ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

وقد كانت مريم عليها السلام صديقة قانتة وصفها الله بقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(٢).

وهؤلاء هم أهل اليقين، لا تضطرب عليهم نفوسهم، ولا تطمع في غير مطمع، وقد ركنوا إلى موعود الله، قل أو كثر، زاد أو نقص، أسرع أو أبطأ، على أية صورة، وعلى أية كيفية، فلم

(١) آل عمران: ٣٧.

(٢) التحريم: ١٢.

يشغلهم شأن الرزق عن عبادتهم، ولم تلههم مطالب النفس عن مطلب قلوبهم ومهوى أفئدتهم.

ولكن الناس ليسوا جميعًا من أهل اليقين، لهذا افترقوا أمام وعد الله في شأن الرزق، وضمانه إياه، وأكثرهم لم تسخ نفسه بالسكون إلى ذلك واضطربت، لأنها لم تعرف كميته ولا كيفيته ولا وقته، وفيها شراهة وحرص وطمع، لهذا كانت تحتاج إلى ما يجعلها تسكن وتهدأ وتستقر.

من أجل هذا وضع الله طلب المعاش رحمة للناس، حتى تسكن نفوسهم إلى الوقت الذي يصل إليهم؛ لأن النفس إذا احتاجت طمعت إلى من في يده الفضل، فإن نالت منه لم تسلم من الغفلة عن الله، وإن منعها وجدت عليه وجدًا شديدًا لأن يقينها لم يبلغ بها إلى الحد الذي ترى فيه قدر الله، فيكون العطاء فتنة، ويكون المنع فتنة.

لهذا علق الله الأرزاق بسعي المرء، فإن حصل كان ذلك معلقًا بسعيه فلا يرى المنة فيه لغير الله عز وجل، وإن فشل كان ذلك معلقًا بسعيه، فلا يعود باللائمة على غيره، ولا يكتسب عداوة ولا حقدًا ولا بغضاء.

وسبب آخر يستدعى تعليق الارزاق بالمكاسب، هو أن الله أثبت الأرزاق في اللوح على المقدار الذي يريد، وقد لا يوافق هذا التقدير رغبة النفس وشهواتها، سواء من ناحية الكمية أو الكيفية أو الوقت، فلو لم يعلق الرزق بالتماس الأسباب، لأصبحت النفس عرضة أن تسخط على المقدور ولا تراه حسنًا، فعندما علقت الأرزاق بالأسباب والسعي في الاكتساب، أصبح توجه الإنسان بالرضا أو بالسخط إلى سعيه واكتسابه دون قدر الله وقضائه، وتجنب بذلك فتنة خطرة لا تؤمن عقباها.



من ذلك يتبين أن الأرزاق مثبتة في اللوح على المقدار الذي يريده الله، وعلى الكيفية التي يريد، وفي الوقت الذي يريد، ولابد من وصولها على ما هي مثبتة عليه في اللوح لا يستأخر بها قعود ولا يستعجلها طلب، ولكن الله جعل تحصيلها في هذه الحياة مبنيًا على السعي والطلب، رحمة بعباده، وعلمًا منه بأن النفوس بعامة لا تحتمل غير هذه السنة، من حيث إنها لا تطمئن ولا تسكن إلا إلى ما في يدها، فإذا لم تجد في يدها، وقيل لها: انتظري ما يأتيك من الغيب لم تهدأ ولم تستقر، لما فيها من طمع وحرص، فهي تريد قدرًا معينًا بكيفية معينة في وقت معين، حتى تشبع شهواتها، وتحصل على لذائذها ورغائبها.

فإذا تأخر عما أرادت وقتًا قليلاً قلقت واضطربت، ونظرت ذات اليمين وذات الشمال، لضعف يقينها، وسوء ظنها، وإذا جاء دون ما قدرت كمية أو كيفية نظرت إلى من بسط له نظرة

غيرةٍ وحسد، لطمعها وحرصها، فإذا أعطيت أو منعت أصبحت عرضة للفتنة بأن لا ترى العطاء والمنع من الله صاحب المنع والعطاء.

لذلك لم يكن بدٌ لها من التماس رزقها بنفسها، من وراء الأسباب التي وضعها الله لذلك، حتى إذا نالت ما كتب لها من الرزق، ولم يكن حسبما اشتهت أو قدرت، عادت باللائمة على نفسها، وعلى عجزها في سعيها، فلا تكون عرضة لأن تسخط على المقدور، أو تنظر إلى من فضل عليها نظرة ملق أو اغترار.

وابتداء من هذا المستوى تتدرج مستويات العباد في اليقين والزهد والتوكل، فمستوى عباد أيقنوا بوعد الله واطمأنوا إلى ضمانه، لكن رغائبهم مشبوبة، ونفوسهم حية بشهواتها، يكبتونها كبتًا بثقل يقينهم، فلا يؤمن عليهم إلا أن يجروا على

سنة الله لعباده في طلب الرزق تسكينًا لنفوسهم حتى لا تنقض عليهم، في حاجة دائمة إلى التعليل والحراسة.

ومستوى أعلى من ذلك لا يحتاج إلى كل هذا العناء، لأن نفوسهم قد استسلمت لإرادة باريها، فيستوي لديهم ما يحصل لهم من أرزاقهم بأي قدر، وفي أي وقت وعلى أية كيفية، ومع ذلك فهم يلتمسون رزقهم من وراء الأسباب امتثالًا لأمر الله، واتباعًا لسنته في خلقه، منتظرين ما يخرج لهم من حجب الغيب، فلا يتعلقون بحقيقة الأسباب، ولا ينظرون إلى ظاهر هذه الأسباب، ولكنهم يتعلقون بولي الأسباب، ويوجهون أنظارهم إليه.

أما الذي غاب في عبادته عن نفسه وعن الدنيا وعن الرزق وعن أسبابه فمثل هذا لا يخاطب، بل تصلهم أرزاقهم بمحض فضل

الله عليهم إذ إن هؤلاء يستوي لديهم ما يكون بسبب وما يكون بغير سبب، كما يستوي عندهم ما غاب وما حضر.

ومع أن ذلك واضح، فإن المرسلين، وهم آية الخلق وقدوتهم، كانوا يبتغون أرزاقهم بالكسب والسعي، (فروي لنا في الخبر أن إدريس عليه السلام كان خياطًا، وكان نوح ﷺ نجارًا، وهود ﷺ عربيًا تاجرًا، وصالح ﷺ عربيًا تاجرًا، وشعيب[١]. صلوات الله عليهم أجمعين عربيًا تاجرًا، وموسي ﷺ راعيًا، وداود صلوات الله عليه وسلامه زرادًا، وكانت مريم تغزل الشعر والصوف، وتكسو نفسها (هي) وعيسى صلوات الله عليهما، وكانت حواء عليها السلام تغزل الشعر والصوف وتنسجه، وكان نبينا ﷺ راعيًا)[٢].

---

(١) في الأصل: شعيبًا.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك موقوفا على ابن عباس (٢/٦٥٢/ح٤١٦٥)

ولقد روى الحكيم الترمذي من أخبار الرسول ﷺ في نفسه وفي صحابته، ثم روى من أحاديثه العامة، ومن أخبار الصحابة والتابعين ما يؤكد اتجاهه إلى التزام السنة الطبيعية التي سنها الله لعباده، من السعي في طلب الرزق، مؤكدًا بذلك أن كبار الناس وأرفعهم رتبة ومقامًا والذين جعلهم الله آية لعباده، لم يخالفوا هذه السنة، ولم يتجافوها.

ولكن شتان بين طلب وطلب، وشتان بين سعى وسعى، فإن طلب المخلصين والصادقين ليس كطلب الصديقين، وطلب الصديقين ليس كطلب المقربين.

وطلب الأولين مع حرص وطمع، فقلوبهم بذلك مثقلة، وأبدانهم مرهقة، ونفوسهم قلقة مضطربة.

وسكت عنه.

والصديقون يعللون أنفسهم ويداوونها بهذا الطلب، حتى تهدأ وتستقر وإن كانوا على يقين بوفاء الضامن لهم بما ضمن.

أما المقربون فقد ارتفع عنهم الاهتمام بذلك كله، ولم يكن لهم هَمٌّ إلا ربهم وخالقهم، فكان سعيهم وطلبهم في روح وراحة، قد يسرت لهم أرزاقهم، وهيئت لهم أسبابها ووسائلها.

ولو استغرقهم الله عن أسبابه جملة لأوصل إليهم أرزاقهم دون ما سعي منهم ولا طلب، فالأولون يطلبون أرزاقهم من جهة الضمان، والآخرون ينتظرونه من غير جهة الضمان، ولكن من باب البر والرحمة والامتنان.

ولقد ضرب الحكيم لذلك مثلا برجل له عبد، ولعبده أبوان، فذهب هذا السيد فوضع ألف درهم على يد رجل برٍ تقيٍّ وفيٍّ فاضل، لينفق على عبده، فهذا العبد وإن وثق بهذا البر التقي، وسكن قلبه على وفائه، اضطرب قلبه خوفًا على وفاء منيته

وشهوته، وأن لا يوافق أُجراؤه عليه، وتدبيره في أجرائه محبة هذا العبد.

فلو أن هذا السيد وضع هذه الدراهم على يدي أبوي هذا العبد سكن قلبه، واطمأنت نفسه، لعلمه برأفة أبويه، ورحمتهما عليه، فسكنت نفسه من الوجهين جميعًا من الوفاء برزقه، ومن قبل كيفية الرزق.

والأول سكن قلبه من قبل الوفاء، ولم يسكن قلبه من قبل الكيفية، فتلك الجزازة [١] باقية، والحيرة كائنة، والوساوس داخلة.

ثم بين مطابقة التشبيه بقوله: (فالزاهد يتناول رزقه من الثقة والضمان، لأنه لم يتصل به، والعارف يتناول من الكرم والرأفة والرحمة،

(١) الجزازة: ما سقط من الأديم وغيره إذا قطع، ماد جزز. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ٨٦٩).

حسن ظنه به من الثقة، لأنه (في) مقام الاتصال، فاتصاله بخالقه أكثر من اتصال هذا الولد بأبويه، وأين يقع اتصال الولد من اتصال العبد بمولاه، إذا مكن له بين يديه)[١].

ويمكننا الآن، بعد أن أدركنا هذا الاتجاه، أن نقدر ماذا يكون جواب الحكيم على السؤال الذي وجه إليه بشأن بعض المقبلين على أمر الدين، الذين تركوا الطلب وقالوا: قد ضمن الله الرزق.

فهؤلاء -ولا شك-قد وضعوا أنفسهم في غير موضعها واستشرفوا إلى منزلة لم يستعدوا لها، ولم يكونوا -بعد- من أهلها، فأصبحوا عرضة للفتنة، حيث يأخذون بمقتضى اليقين نفوسًا لم تعمر بعد باليقين، ويتغافلون عن أطماعهم وشهواتهم،

---

(١) جواب الحكيم الترمذي: كتاب من الري صـ١٧٤-١٧٥.

وهم في أعماقهم إليها متشوفون، فهم في الظاهر كسل وبطالة، وفي الباطن حرص وجزازة. لذلك أجاب الحكيم بقوله: (قعدوا أو أقعدوا ؟ وإن كانوا قعدوا ينبغي لهم أن يقوموا، أن يطلبوا تحرزاً من الطمع وفساد القلب، وتحصنًا من فتنة النفس أن تحمله الحاجة على تناول الشبهة، والتذلل للأغنياء، فإن لم يفعل أبغضهم).

ثم بين أن ذلك القعود ليس في الواقع إقبالًا على أمر الدين، أو تفرغًا للعبادة بل هو انصراف عن أمر الدين وهروب منه لأن الجهاد في طلب الحلال من أفضل العبادات فهو يقطع به الطمع عن نفسه، ويتحرى فيه الورع والتقوى.

ثم هو بعد ذلك يتخلق بأخلاق الكرام، عندما يتعامل مع الناس على ما أمر الله وسن رسوله ﷺ، ثم هو ينفق على نفسه وعلى أهله من فضل الله –تعالى– الذي آتاه، ثم هو بعد ذلك جدير أن يفضل من القليل الذي يكتسبه لصلة رحم ومواساة

يتيم وعطف على الفقير والمسكين والأرملة، فأي عبادة أفضل من ذلك؟ هل يدانيه صوم أو صلاة، أو شيء من أعمال البر؟!

والحكيم يشير بكل ذلك إلى ما في السعي لطلب المعاش من المصالح النفسية والفردية والاجتماعية التي ينبني عليها كثير من نواحي الحياة العامة وعلاقاتها.

على أن تعود المرء عن الطلب والكسب قبل استقرار النفس باليقين ليس قاطعًا عن سبيل الله فحسب، بل فيه مخاطر وآثام لأنه مسئول عن حق الأهل والزوجة والولد، واعتذاره بأن رزقهم على الله مغالطة، لأنه لا يدري على أي كيفية ضمن الله لهم أرزاقهم، وقد حكم في تنزيله بقوله: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ (١)، وقال في شأن الرضاع ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ (٢)،

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) الطلاق: ٦.



فهذا تارك للسبيل والسنة، يعيش في عناء ويموت ظالمًا طامعًا قاطعًا للحقوق على أهله، وقد روي عن رسول الله ﷺ: ﴿كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت﴾[(١)].

فهو مكلف إذن بالسعي للحصول على رزقه وأرزاقهم، وتركه السعي لذلك ترك لما كلف به، ثم هو في وقت انقطاعه وقعوده تمده نفسه إلى النظر إلى ما في أيدي الناس، لأنها لم تعمر بعد باليقين فيما عند الله، وتميل به لمن أكرمه بالنوال والعطية، فينصرف إلى الأسباب، وهو يدعي تركها مع شعور الذلة والطمع، وكفى بذلك إثمًا.

وربما تعلل بعض هؤلاء بفساد المكاسب، وندرة الحلال، وذهاب الأمانة بين الناس.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه -كتاب الزكاة- باب في صلة الرحم (٢/١٣٢/ح١٦٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وإسناد حسن.

وقد ناقشهم الحكيم بقوله: (فأنتم الهُرَّاب من مجاهدة النفس، فكيف يصلح من هرب من مجاهدة النفس والشدة ومقاساة الغموم في دين الله، ثم يعلق عليهم بقوله: (فقعد هذا بغليان مرجله، وهواه المظلم، فقال: أنا أبتغي من الله حتى يرزقني كما ضمن، فما يدريك كيف ضمن؟ وإنما ضمن الأرزاق جملة، فمنها في يسر وراحة ومنها في عسر وشدة، فكيف تخطيت إلى الراحة دون الشدة؟

فهم قوم آثروا الراحة على الشدة، والكسل على العمل، والبطالة على الجهاد، وتستروا خلف فهم سقيم لآيات الضمان وأخباره، فكان قعودهم بمشيئة أنفسهم، وتدبيرًا منهم لها لا تبعًا لمشيئة الله، ولا انتظارًا لأمره وتدبيره، (أما الذين أقعدوا فقوم كان سبيلهم منذ تابوا ما وصفنا من الجهد في حفظ الحدود مع الله في طلب المكاسب، وركبوا صعاب الأمور، ودققوا النظر،



فتورعوا عن كثير من الحلال مخافة الشبهة..، فهؤلاء قوم على سبيل الصدق والوفاء، يتقون ما حذرهم، ويؤدون حقوق أهل التبعة، ويحفظون الجوارح في ذلك، فكل هذه فروض يؤدونها، ثم بعد ذلك تنقلوا بأن واسوا الإخوان وتعطفوا على الأرملة واليتيم، ووصلوا الأرحام، ومع ذلك أطاعوا الله في سائر الأمور، فهداهم واصطفاهم وقبلهم فشغلهم بنفسه، فهم المحررون عتقاء الرحمن من شهوات النفوس ولذاتها، لأن القلب إذا شغل بشيء ذهل مما سواه فكيف إذا اشتغل برب الأشياء، ففتح الله على قلوبهم من ملكة ما نسوا في جنبه كل مذكور.

فالحكيم الترمذي لا يقبل في فهم آيات الضمان وأخباره فهم الكسالى والمتنطعين، ولكن على أساس ما كلف الله به العباد من التماس الأسباب والسعي والاكتساب للحصول على ما ضمن

لهم من الرزق، فذلك هو تدبير الله لهم، ومن لم يتبع تدبير الله فهو متبع لتدبير نفسه.

وهو يبين أن الناس مراتب في التماس أرزاقهم، وفي فهمهم لضمان الله لها، وأن أيسرهم مئونة في تحصيل الرزق هم أكثرهم لله طاعة، وأن اليسر ليس هو الكسل والبطالة وراحة البدن، ولكن اطمئنان النفس وراحتها، بسبب ثقتها بضمان مولاها.

ثم هو يفتح مجالًا واسعًا للقول بالانقطاع عن طلب الرزق، أو بالتجريد، كما يسميه ابن عطاء الله السكندري في حكمته التي صدرنا بها هذه المقدمة.

ولكن ذلك عنده مقصور على هذه الطبقة العليا من الأولياء الذين جعلوا همومهم هما واحدا، فاشتغلوا بربهم وحده، حتى نسوا في جنبه كل شيء سواه، بما في ذلك نفوسهم.

وإنما يسوق الرزق من غير مئونة وطلب إلى من نسي الرزق وذهل عنه، شغلا بربه، وإلى من وثق به في الرزق من غير جهة



الضمان، لأنه لما عرفه برًا لطيفًا، وبه رؤوفًا رحيمًا، وعرفه حنانًا ومنانًا، وعرفه بالمعروف، وكرم الصفح، وكرم المعاملة، وجود العطايا، واستقرت هذه المعرفة في قلبه، أمله بخير الدنيا والآخرة، فعظم أمله، وحسن ظنه به، واستحي منه أن يضطرب قلبه عليه من سوء الظن به، فأمن خوف فوت الرزق، أو إتعابه فيه، فوفي له بذلك، وبهذا يتضح كذلك مدى الصلة بين التوكل والسعي، وهل يوجد بينهما تعارض كما يحاول هؤلاء الأدعياء أن يوهموا السذج والبسطاء، وينخروا بذلك في عظام الأمة الإسلامية وفي هيكلها وعصبها العملي والاقتصادي.

إنه لا يوجد أي تعارض -على أي وجه وبأي مقياس- بين التوكل على الله وبين السعي في طلب الرزق وعمارة الكون، بل إن التوكل على الله لا يتم إلا باتباع سنته في كونه، والتماس الأشياء من الأسباب التي وضعها بحسب علمه وحكمته، والخروج على ذلك خروج عن محيط التوكل، ولو كان تحت

شعار التوكل، وتمرد على الله، وتحكم في شئونه حيث نبتغي منه ما نريد حسبما نهوى ونريد، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟!. وليس هذا شأن الصالحين والمتقين، ولا شأن الزاهدين والموقنين ولا شأن العارفين والواصلين، ولا شأن الأنبياء والمرسلين، أفليس لنا فيهم أسوة حسنة وقدوة صالحة؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١).

وعلى الله قصد السبيل وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو حسبنا ونعم الوكيل..

---

(١) [الأنعام: ٩٠].



للإمـــــــــام

أبى عبد اللّه محمد بن على بن

الحسن الحكيم الترمذى

٢٠٥-٣٢٠ هـ تقريبا



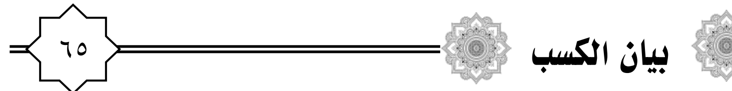
قال أبو عبد الله، محمد بن علي الترمذي -رحمه الله-

أول من ندب إلى المعاش:

أما شأن المعاش، فأول من ندب إلى ذلك ودبر له آدم عليه السلام، وذلك أنه حذر من إبليس حين أدخل الجنة، فأعطى في الجنة أربعًا، وقيل له: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1] فأعطى هذه الأربع في الجنة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، ورفع عنه مئونتهن، وقيل له: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ بطلب هذه الأربعة، أي: تتعب، وإنما هي شقاوة البدن.

---

(١) سورة طه: الآيات: ١١٧-١١٨-١١٩.



وجوب نفقة المرأة على الزوج

ومن ههنا استدللنا أن نفقة المرأة على الزوج واجبة، وهي هذه الأربعة، فإنه أضاف العداوة من إبليس لهما، وكذلك الإخراج من الجنة، والشقاوة في طلب المعاش أضافه إلى آدم ﷺ.

فدل إفراد ذكره للشقاوة أن السعي على الزوج[1]، ثم نطق الكتاب في شريعة هذه الأمة بوجوبها على الأزواج[2].

---

(١) حيث كان الحديث أولا لآدم عنه وعن زوجه قائلا له: ﴿يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ طه: ١١٧، ثم خاطبهما معا بصيغة التثنية قائلا: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أما قوله تعقيبا على ذلك ﴿فَتَشْقَى﴾ فقد خاطب به المفرد، وهو آدم عليه السلام، فكأن الشقاوة في طلب المعاش قد فرضت - بحسب الأصل- عليه وحده.

(٢) في مثل قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: **٢٣٣**، وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ=



من كان لربه أطوع كان رزقه أيسر فلما أخرج من الجنة ابتلى بهذه الشقوة، فتعبت فيها ذريته أيام الحياة.

فكل من كان من ولد آدم عليه السلام، أطوع لربه عز وجل، وأشد انقيادًا له كانت مؤونة هذا المعاش عليه أيسر، كما كان آدم عليه السلام، لم يبتل[1] بطلب المعيشة إلا بعد ترك الطاعة.

=بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٦، ٧].

(١) في الأصل: لم يبتلى.

من يأتيهم رزقهم بغير مئونة

وروى مسلم بن جبير[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة موكلين بأرزاق بني آدم، قد علموا أرزاقهم على درجاتهم، ثم قال لهم: أيما عبد من عبادي جعل همه همًا واحدًا فضمنوا رزقه السموات والأرض وبني آدم، وأيما عبد طلبه فأعطوه من حيث أراد، فإن تحري مكاسبه بالعدل فطيبوا له رزقه بعدل، وإن تعدى إلى الحرام فأخذ من هواه (فأعطوه) إلى غاية درجته التي ليس له

(١) مسلم بن جبير: ذكر عنه الذهبي أنه يروي عن أبي سفيان وقال: لا يدري من هو، وقيل تفرد عنه يزيد بن أبي حبيب. ميزان الاعتدال(٤/١٠٢/ت٨٤٧٣)، راجع تهذيب التهذيب لابن حجر(١٧٤/١٠).

فوقها، ثم حولوا بينه وبين سائر الدنيا، ولا يأخذ من حلالها وحرامها فوق الدرجة التي كتبت له » [١].

(١)يوجد في الأصل خدش عند قوله (فأخذ من)، وقد أضفنا لفظ [فأعطوه] ليتضح المعني حسبما يدل عليه السياق، راجع في هذا الحديث كنز العمال (٤/ ١٤) حيث يعزوه إلى الحكيم عن أبي هريرة . انظر أيضا ابن ماجه في المقدمة باب٢٣ حديث٢٠٧. أورده المتقي الهندي في كنز العمال (**٤/٢٦/ح٩٣٢١**) وعزاه إلى الحكيم الترمذي –أي في نوادر الأصول–(**٤/١٣٧**) من حديث أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ، ولم أجد له إسنادًا. وله شاهد عند ابن ماجه في سننه– المقدمة– باب الانتفاع بالعلم والعمل به (**١/٩٥/ح٢٥٧**) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: (سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ × يَقُولُ: مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ).

وعن زيد بن أسلم [(١)]، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تفرغ لعبادة ربه ضمن رزقه السموات والأرض والطير وبنى آدم»[(٢)].

---

(١) زيد بن أسلم: مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكره الذهبي بأنه ثقة حجة، وروي عن حماد بن زيد قال: قدمت المدينة وهم يتكلمون في زيد بن أسلم، فقال لي عبيد الله بن عمر: ما نعلم به بأسا إلا أنه يفسر القرآن برأيه، وثقه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم ومحمد بن سعد والنسائي وابن خراش وقال يعقوب بن شيبة: ثقة من أهل الفقه والعلم، وكان عالما بتفسير القرآن، قال خليفة وغير واحد: مات سنة ست وثلاثين ومائة. ميزان الاعتدال(**٢/٩٨/٢٩٨٩**)، وتهذيب التهذيب (**٣/٣٩٦**).

(٢) روى الحاكم في مستدركه: ثنا إبراهيم بن عمرو السكسكي ثنا أبي ثنا عبد العزيز بن أبي داود عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -: "من طلب ما عند الله كانت السماء ظلاله والأرض فراشه، لم يهتم بشيء من أمر الدنيا، فهو لا يزرع الزرع، وهو يأكل الخبز، وهو لا يغرس الشجر ويأكل الثمار توكلا على الله تعالى وطلبا لمرضاته، فضمن الله السماوات السبع والأرضين السبع رزقه، فهم يبيعون فيه، ويأتون به حلالا ويستوفي هو رزقه بغير حساب عند الله=

والتفرغ لعبادة الله تعالى هو الذي ذكره في الحديث من قوله: "إذا وجدتموه جعل الهم همًا واحدًا، فهذا عبد قد سقط عنه هم نفسه، فصار عارمًا [(١)] لعبادة ربه، مشتغلا بربه في عبادته، وضمنوا رزقه في السموات والأرض، فالسماء تمطر، والأرض تنبت، وبنو آدم تكفي مئونة العلاج والنقلان والإيصال.

هذا لمن اشتغل بربه في عبادته، وذهل عن نفسه، فاستوجب من الله إيصاله إليه على الكفاية بلا مئونة، وهؤلاء (هم) الصديقون.

=تعالى حتى أتاه اليقين، قال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي فقال: بل منكر أو موضوع، إذ عمرو بن أبي بكر متهم عند ابن حبان، وإبراهيم ابنه قال الدارقطني: متروك. انظر (٤/٣١٠) كتاب الرقاق من المستدرك.

(١) يوم عارم: نهاية في البرد، وأمر عارم: شديد، وخلق عارم: شكس، ولعل المعنى أنه قد أصبح مشتدًا منهمكًا في عبادة ربه، بحيث لا يشغل خاطره شيء آخر.

وقد أنبأ الله عز وجل عن الصديقة مريم عليها السلام، لما صارت محررة من أمور الدنيا، فارغة للعبادة، فقال:﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

فإذا كان هذ الصديقة في الكتاب، فالصديقون من الرجال أحرى أن يرزقوا هكذا، فإن كان رزق مريم عليها السلام، نقلته الملائكة إليها، جاز أن ينقل بنو آدم أرزاق الصديقين إليهم، والمؤمنون أكرم على الله عز وجل من الملائكة[٢]، (وهم مع ذلك يطلبون المعاش)

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣٧. من غير أن يحتسب من مكان معلوم.

(٢) يعني أن نقل بني آدم أرزاق الصديقين إليهم ليس بسبب نقص درجتهم عن درجة الصديقة مريم، حيث تولت الملائكة نقل رزقها إليها، لأن المؤمنين وهم من بني آدم أكرم على الله عز وجل من الملائكة، وبذلك يكون نقلهم لأرزاق الصديقين في مستوى لا يقل إكراما لهم عن مستوى نقل الملائكة.

وكانت مريم عليها السلام ممن تطلب المعاش مع هذا، وتغزل ويأكل عيسى صلوات الله عليهما من غزلها.

وعن مجاهد (١) رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (٢) قال: كد المغزل.

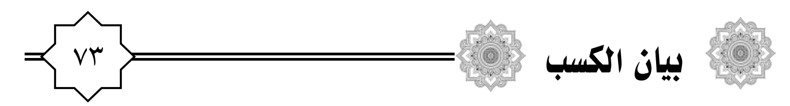
فهذه سنة في ولد آدم، أطوعهم له أيسرهم مئونة في طلب المعاش، لأن الأطوع هو صاحب اليقين والتقوى، ومطيع الله بتيسير الله، ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (٣).

---

(١) مجاهد بن جبر: المقرئ المفسر، أحد الأعلام الثقات قال النباتي: ذكر مجاهد في كتاب الضعفاء لابن حبان البستي، ولم يذكره أحد ممن ألف في الضعفاء، قال: ومجاهد ثقة بلا مدافعة، قال يحيى القطان: مات مجاهد سنة أربع ومائة، وأجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به. ميزان الاعتدال(٣/ ٤٤٠/ ٧٠٧٢) راجع تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٤،٤٢).

(٢) سورة الأعراف: آية٣٢، والآية بتمامها: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} الأعراف: **٣٢**.

(٣) سورة الأعلى: آية٨.



معني اليسر والعسر

وإنما هو تيسير البدن أن يأخذ رزقه من وجه الراحة قل أو كثر، وقد كان رسول الله ﷺ يجوع اليوم واليومين، فكذلك كان رزقه في التقدير في اللوح، ولكن في يسر وراحة وعافية، وكذلك الصديقون من بعده.

وإنما التعب والمئونة من الحرص، وخوف الفوت، وسوء الظن، فعمل هذا على القلب أثقل من كل ثقيل، وبدنه مما جعل على قلبه في تعب ونصب وعناء.

فصاحب اليقين في روح وراحة، أما روحه: فإنه يأخذ من تدبير العرش، وهو في نعيم ولذة، وأما راحته: فلأنه بالذي في ضمان ربه أوثق من الذي صار في يده.

عن أبي أمامة [1] قال: "جاء رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، إن فلانا زكا زرعه وربا العام، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) ذكر ابن حجر في باب الكنى خمسة بهذه الكنية:

أبو أمامة أسعد بن سهل بن حنيف الأنصاري، ولد في حياة النبي ﷺ، قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، ولم يسمع من النبي ﷺ، قال أبو منصور الباوردى: مختلف في صحبته، وقال البخاري: أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه.

وأبو أمامة الباهلي، وهو هدي بن عجلان بن وهب، صحابي، قال سليم بن عامر، قلت له: مثل من أنت يومئذ؟ يعني يوم حجة الوداع، قال: أنا يومئذ ابن ثلاثين سنة، قال ابن عيينة: هو آخر من مات من الصحابة بالشام.

وأبو أمامة البلوي الأنصاري: اسمه إياس بن ثعلبة، ويقال: عبد الله بن ثعلبة قال أبو أحمد الحاكم: رده النبي ﷺ من بدر من أجل أمه.

وأبو أمامة الأنصاري: روي عن النبيﷺ حديثا في الدعاء لقضاء الدين.

وأبو أمامة، ويقال له أبو أميمة التيمي الكوفي، قال إسحق بن منصور عن ابن معين: ثقة لا يعرف اسمه، وقال أبو زرعة: لا بأس به. تهذيب التهذيب (١٢/ ١٤،١٣).

«وما ذاك؟! ركعتان خفيفتان يركعهما العبد خير له من الدنيا وما فيها، ثم أكب على أبي بكر رضي الله عنه، بكلمة يخفيها فقال: لو أنكم تفعلون ما تؤمرون لأكلتم غير زارعين ولا أشقياء»(١).

هذا كان جوابًا لذلك الرجل، فخاطب بها أبا بكر رضي الله عنه، يخفيها عن العامي، لأن مثل هذا الكلام كان يفهمه عنه أبو بكر رضي الله عنه.

كان أبو بكر رضي الله عنه، يكسب المال لإطفاء فتن النفوس، ولتقوية الرسول ﷺ، وعمارة الإسلام، وتعزيز الدين.

---

(١) روى الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: "لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا". باب ما جاء في الزهادة في الدنيا(٤/٤) بمراجعة عبد الرحمن محمد عثمان، ونحو ذلك في ابن ماجه- باب التوكل واليقين- كتاب الزهد رقم٤١٦٤، كذلك رواه أحمد والحاكم. الجامع الصغير (١٠٧/٢).

(عن) ابن وكيع، عن أبيه[١]، عن زمعة بن صالح[٢]، عن الزهري[٣]، عن عبد الله بن وهب بن زمعة[٤]، عن أم سلمة

---

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح أبو سفيان الرؤاسي الكوفي الحافظ أحد الأئمة الأعلام، قال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ما رأيت أوعى للعلم من وكيع ولا أحفظ منه وكان يقول: كان وكيع حافظًا حافظًا، قال ابن المديني في التهذيب: وكيع كان فيه تشيع قليل. انظر ميزان الاعتدال(**٤/٣٣٥/٩٣٥٦**) وانظر تهذيب التهذيب (**١١/١٢٣**).

(٢) هو زمعة بن صالح الجندي اليماني، أخرج له مسلم مقرونا بآخر، ضعفه أحمد وابن معين، وقال ابن معين – مرة –: صويلح الحديث، وقال أبو زرعة: لين واهي الحديث، وقال البخاري: يخالف في حديثه، تركه ابن مهدي أخيرًا، وقال النسائي: ليس بالقوي، كثير الغلط عن الزهري، وقال أبو داود: ضعيف. انظر ميزان الاعتدال (**٢/٨١/٢٩٠٤**) وتهذيب التهذيب (**٣/٣٣٨**).

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشي الزهري أحد الأئمة الأعلام، وعالم الحجاز والشام، ثقة كثير الحديث والعلم والرواية فقيه جامع. انظر تهذيب التهذيب (**٩/٤٤٥**) وطبقات ابن خياط (ص٢٥٩)، والبداية والنهاية لابن كثير (**٩/٣٤٠**).

(٤) هو عبد الله بن وهب بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى الأسدي، قتل يوم الدار، ذكره ابن حبان في الثقات.

رضي الله عنها، أن أبا بكر رضي الله عنه خرج إلى تجارة إلى بصرى قبل موت رسول الله ﷺ بعام، لأن اشتغاله(١) بالكسب عن لزوم رسول الله ﷺ.

عن جرير(٢)، عن مغيرة(٣)، قال: كان رسول الله ﷺ، يعمل في مال أبي بكر رضي الله عنه، كما كان يعمل في مال نفسه(١) فلا

---

(١) في الأصل: استعماله، ومع وضع لفظ (اشتغاله) بدلاً منها فإن الجملة لا تزال في حاجة إلى إيضاح، ولعل المقصود أن اشتغاله بالكسب كان يمنعه عن لزوم رسول الله ﷺ، لذلك كان أبو بكر رضي الله عنه قليل الخروج للتجارة حتى لا يحرم من ملازمة الرسول ﷺ.

(٢) لعله جرير بن عبد الحميد بن قرط - بضم القاف وسكون الراء - الضبي لأنه هو الذي يروي عن مغيرة، نشأ بالكوفة ونزل بالرى، قال الذهبي: صدوق يحتج به في الكتب، وقال ابن عمار: كان حجة، وكانت كتبه صحاحا. ميزان الاعتدال (١٤٦٦/٣٩٤/١) وتهذيب التهذيب (٧٥/٢).

(٣) ولعله - أيضا - مغيرة بن مقسم - بكسر الميم وفتح السين- إمام ثقة، قال ابن فضيل: كان يدلس وكنا لا نكتب عنه إلا ما قال: حدثنا إبراهيم، وقال أبو حاتم عن أحمد: حديث مغيرة مدخول، عامة ما روى عن إبراهيم إنما سمعه من حماد=

يتوهم على الصديق، رضي الله عنه، أنه كان يكتسب لمعالجة النفس وتطييبها في شأن الرزق، كأهل ضعف اليقين.

=ومن يزيد بن الوليد والحارث العكلي وعبيدة وغيرهم، قال: وجعل يضعف حديث مغيرة عن إبراهيم وحده، وقال العجلي: مغيرة ثقة فقيه الحديث إلا أنه كان يرسل الحديث عن إبراهيم، وقال النسائي: مغيرة ثقة، وقال ابن معين: ثقة مأمون. ميزان الاعتدال (**٤/ ١٦٥/ ٨٧٢٣**) وتهذيب التهذيب(**١٠/ ٢٦٩**).

(١) أي يتصرف في مال أبي بكر رضي الله عنه كما لو كان ماله الخاص ﷺ.

طلب المعاش رحمة للناس

وطلب المعاش رحمة للناس، لتسكين نفوسهم إلى الوقت الذي يصل إليهم، وذلك أن النفس إذا احتاجت طمعت إلى من في يده الفضل، فإذا منع وجد على المانع وجدًا[١] شديدًا، وليس له من اليقين ما يرجع إلى أن الله عز وجل لم يقدر له، فيكون ذلك المنع فتنة عليه.

فمنه تعوذ رسول الله ﷺ، حيث قال: "أعوذ بالله من طمع يهدي إلى طبعٍ"[٢].

---

(١) وجد عليه - بفتح الجيم وكسرها- يجد - بكسر الجيم وضمها - وجدًا وجدَة وموجدة: غضب. القاموس المحيط صـ ٣٢٤.

(٢) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١١٢) وقال: أي يؤدي إلى شين وعيب، وكانوا يرون أن الطبع - وهو بفتح الباء - هو الرين وذكره في الجامع الصغير بهذه الرواية: استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع، ومن طمع يهدي إلى غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع،وقال عنه: إنه صحيح،رواه أحمد=

لأنه إذا حصل المنع، ولا يرى أن هذا المنع من الله، يجد قلبه على أخيه، فيطبع على قلبه، لأنه يغل قلبه على أخيه حتى يعاديه، فعلم الله سبحانه هذا الضرر في ذلك، فوضع أبواب المعاش ووجوه المكاسب.

=بن حنبل في مسنده، والطبراني في الكبير، والحاكم في مستدركه.

وقد ذكره الحاكم في كتاب الدعاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع ومن طمع في غير مطمع حين لا مطمع، وقال: هذا حديث مستقيم الإسناد، وكذلك عقب الذهبي.

المرسلون عليهم السلام أسوة في طلب المعاش

وبعث الله عز وجل المرسلين آية للخلق فروى لنا في الخبر[١]:

أن إدريس عليه السلام كان خياطا، وكان نوح صلى الله عليه.

---

(١) وقد يستأنس لهذه الرواية بالنسبة لنوح عليه السلام بمثل قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ هود: **٣٧**، وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ هود: **٣٨**، وبالنسبة لشعيب عليه السلام بمثل قوله تعالى في دعوته لقومه: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ هود: **٨٤، ٨٥**، وبالنسبة لموسى عليه السلام بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ طه: **١٧، ١٨**، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا﴾ القصص: **٢٣، ٢٤**، وما يتلو هذه الآيات من آيات أخرى.

وبالنسبة لداود عليه السلام بمثل قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ الأنبياء: **٧٩، ٨٠**،=

=وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ سبأ: ١٠، ١١، وقد روى البخاري في باب الإجارة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"(٣/١١٦) وروى نحوه ابن ماجه (٧٢٧/ح٢١٤٩) وروى الحاكم حديثا يتضمن ذلك كله.

وروى الحاكم حديثا يتضمن ذلك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل جالس عنده وهو يحدث أصحابه: ادن مني، فقال له الرجل: أبقاك الله، والله ما أحسن أن أسألك كما سأل هؤلاء، فقال: ادن مني فأحدثك عن الأنبياء المذكورين في كتاب الله، أحدثك عن آدم إنه كان عبدا حراثا، وأحدثك عن نوح إنه كان عبدا نجارا، وأحدثك عن إدريس إنه كان عبدا خياطاً وأحدثك عن داود إنه كان عبدا زرادًا، وأحدثك عن موسى إنه كان عبدًا راعيًا، وأحدثك عن إبراهيم إنه كان عبًدا زراعًا، وأحدثك عن صالح إنه كان عبدًا تاجرًا، وأحدثك عن سليمان إنه كان عبدًا آتاه الله الملك، وكان يصوم في أول الشهر ستة أيام، وفي وسطه ثلاثة أيام، وفي آخره ثلاثة أيام، وكانت له تسعمائة سرية، وثلاثمائة فهرية، وأحدثك عن ابن العذراء البتول عيسى بن مريم إنه كان لا يخبأ شيئا لغد، ويقول: الذي غداني سوف يعشيني والذي عشاني سوف يغديني، يعبد الله ليلته كلها، يصلى حتى تطلع الشمس، وهو بالنهار سائح، ويصوم الدهر كله، ويقوم الليل كله، وأحدثك عن=

وسلم نجارًا، وهود ﷺ عربيًا تاجرًا، وصالح ﷺ عربيًا تاجرًا، وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين عربيا تاجرا، وموسي ﷺ راعيًا، وداود صلوات الله عليه وسلامه زرادا، وكانت مريم تغزل الشعر والصوف وتكسو نفسها (هي) وعيسى صلوات الله عليهما.

ويحقق هذه الأخبار من فعلهم ما نطق به الكتاب، وذلك أن المشركين عيروا رسول الله ﷺ في طلبه المعاش، وتجارته في أول نبوته، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ

=النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يرعى غنم أهل بيته بأجياد، وكان يصوم فنقول: لا يفطر، ويفطر فنقول: لا يصوم، وقلما ما رأيناه صائما، ويصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وكان ألين الناس جناحا، وأطيبهم خبراً، وأطولهم علما، وأخبرك عن حواء إنها كانت تغزل الشعر فتحوله بيدها فتكسو نفسها وولدها، وأن مريم بنت عمران كانت تصنع ذلك، وقد سكت عنه الذهبي.

وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾[١] أي ما له يلتمس المعيشة، وقال في آية أخرى جوابًا لهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾[٢]، أي إنهم يبتغون من الله يطلبون المعاش، يخبر عن رسولنا وعنهم صلوات الله عليهم أجمعين، أن هذا من فعلهم، ولم يكونوا يتعجبون من مشيه في الأسواق لولا أنه لطلب المعاش.

فإن قلت: مشي لإبلاغ الرسالة، قلت: فما معنى تعجبهم من ذلك؟ وما معنى ذكر الكنوز والجنة التي يأكل منها؟ [٣]، وقد فسر أهل التفسير هذه الآية على تأويل طلب المعاش.

---

(١) الفرقان:٧.

(٢) الفرقان:٢٠.

(٣) أي دون أن يحتاج إلى سعي وكد وعمل.

وقد وردت الآيات هكذا: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ﴾[١].

---

(١) الفرقان: ٧ – ١٠.

خير الطعام وأحبه إلى الله

ثم ما جاءت به الأخبار عن الرسل وعن رسولنا صلى الله عليه (وعليهم) وسلم:

ثـــور[١]، عـــن خـــالد بـــن معـــــــــدان[٢]،

---

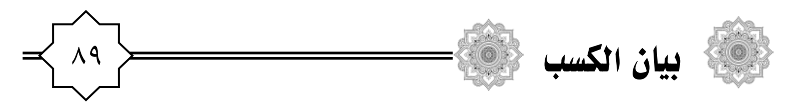
(١) ثور بن يزيد الكلاعي أبو خالد الحمصي، أحد الحفاظ عن خالد بن معدان وطائفة، قال ابن معين: ما رأيت أحدا يشك أنه قدري، وهو صحيح الحديث، وقال ابن المبارك: سألت سفيان عن الأخذ عن ثور، فقال: خذوا عنه، واتقوا قرنيه، وقال عمرو بن على عن يحيى بن سعيد: ما رأيت شاميا أوثق من ثور بن يزيد، وقال وكيع: ثور كان صحيح الحديث. أنظر: ميزان الاعتدال(١/ ٣٧٤/ ١٤٠٦) وتهذيب التهذيب (٢/ ٣٤).

(٢) خالد بن معدان - بفتح الميم- ابن أبي كريب الكلاعي، أبو عبد الله الشامي، قال العجلي: شامي تابعي ثقة، وقال يعقوب بن أبي شيبة ومحمد بن سعد وابن خراش والنسائي: ثقة، وقال الإسماعيلي: بينه وبين المقدام بن معد يكرب جبير بن نفير، قال ابن حجر: وحديثه عن المقدام في صحيح البخاري. تهذيب التهذيب (٣/ ١١٩).

عن المقدام(١)، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من الطعام يأكله ابن آدم أحب إلى الله من كسب الرجل بيده، وإن أخي داود كان يأكل من كسب يده » (٢).

(١) المقدام بن معد يكرب بن عمرو بن يزيد بن معد يكرب، نزل حمص، وروي عن النبي ﷺ، وعن طائفة من الصحابة. انظر تهذيب التهذيب (٢٨٨/١٠).

(٢) (لعله هو الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع باب (كسب الرجل وعمله بيده) حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، عَنْ ثَوْرٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنِ المِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» (٣/ ٧٤).



الحث على العمل والاكتساب

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ("أفضل كسب الرجل كسب يد العامل إذا نصح")[١].

وتخصيص نبيِّ الله داود عليه السلام بالذكر، لأنه كان نبيا ملكا، وحتى لا يتبادر إلى الذهن عند ذكر غيره من الأنبياء أنهم

---

(١) روى الحاكم في مستدركه عن أبي بردة قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ أَوْ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ» وسكت عنه الذهبي، كذلك رواه عن سعيد بن عمير عن عمه قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْكَسْبِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَسْبٌ مَبْرُورٍ»، قال الذهبي: صحيح، قال ابن معين: عم سعيد: البراء، وروي عن رافع بن خديج عن أبيه قال: يا رسول الله َيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: «كَسْبُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ» وقد سكت عنه الذهبي(٢/ ١٠)، وقد ذكر في الجامع الصغير أنه قد رواه أحمد في مسنده عن رافع بن خديج، والطبراني في الكبير عن ابن عمر وعن رافع بن خديج، وصححه (١/ ٣٧).



كانوا يعملون لحاجتهم، فهذا نبي ملك كان يأكل من عمل يده، لا لحاجته، ولكن لأنه خير من غيره.

وعن مالك بن دينار[١]، قرأ في التوراة: "إن الذي يعمل بيده فيأكل طوبى لمحياه، طوبى لمماته.

وعن النبي ﷺ، أنه قال لنسائه: «خيركن أطولكن يدًا،» وفي رواية أخرى: « أغزلكن، وكان غزلهن الصوف، وفي رواية: إنما أعني أصنعكن يدًا »[٢].

---

(١) مالك بن دينار السلمي الناجي مولاهم أبو يحيي البصري، من علماء البصرة وزهادها المشهورين، قال النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: كان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوت بأجرته، أخرج له البخاري من حديث أبان عن عائشة رضي الله عنها حديثا في العمرة. انظر ميزان الاعتدال (**٣/٤٢٦/٧٠١٦**) وتهذيب التهذيب (**١٠/١٤**) وحلية الأولياء(**٢/٣٥٧**).

(٢) ذكر في الجامع الصحيح رواية أبي يعلى في مسنده لحديث: خيركن أطولكن يدا، وصححه (**٢/١٠**).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "نعم لهو الحرة المؤمنة المغزل، وعن محمد بن خالد الضبي [١] قال: مرَّ إبراهيم رحمه الله على امرأة يقال لها أم بكر، فسلم فردت وهي جالسة وفي يدها مغزل، فقال لها إبراهيم: يرحمك الله، أما كبرت!؟ قالت: بلى، قال: أما آن لك أن تضعي هذا المغزل؟ قالت: وكيف أضعه وقد سمعت على بن أبي طالب رضوان الله عليه يقول: هي من طيبات الكسب؟!

ورُوي أن زكريا عليه السلام كان نجارًا [٢]، وعن ابن

---

(١) انظر في ميزان الاعتدال (٣/ ٥٣٩/ ٧٤٨٠) وتهذيب التهذيب (٩/ ١٤٥).

(٢) روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ كان زكريا نجاراً ﴾ كتاب الفضائل، باب من فضائل زكريا عليه السلام (١٨٤٧/ح٢٣٧٩) كذلك رواه ابن ماجه في باب الصناعات كتاب التجارات عن أبي هريرة (٧٢٧/ح٢١٥٠).

المسيب[١]: كان لقمان خياطًا، وعن عثمان بن عطاء[٢]عن أبيه قال: كان سليمان عليه السلام يسف[٣] الخوص بيده، ويأكل خبز الشعير، ويطعم بني إسرائيل الخبز النقي واللحم.

وعن يزيد النحوي، عن عكرمة أن داود صلوات الله عليه وسلامه رأى في المنام رجلا معه في الجنة من أهل السوق، فجعل يطوف في السوق، فإذا رجل معه كارة[٤] من حطب، يقول: من يشترى طيبا بطيب؟ فدنا منه، فقال: ما طيبك هذا؟ قال: حطب حطبته فلم أظلم فيه أحدًا، فأريد رجلا كسب

---

(١) انظر فيه تهذيب التهذيب(٤/ ٨٤).

(٢) انظر فيه ميزان الاعتدال(٣/٤٨/ ٥٥٤٠) وتهذيب التهذيب (١٣٨/٧)، أما أبوه ففي ميزان الاعتدال (٣/٧٣/ ٥٦٤٢) وتهذيب التهذيب صـ٢١٢.

(٣) سف الخوص والحصير سفا: نسجه بالأصابع.

(٤) الكارة: ما يجمع ويشد ويحمل على الظهر من طعام أو ثياب.

درهمًا حلالًا يعطيني به، فقال: هاك درهمًا، احمله معي إلى المنزل، فحمله، فلما انتهى به إلى المنزل قال: ما تصنع بدرهمك هذا؟ قال: ثلثه لوالدي، وثلثه للمساكين، وثلثه لي ولعيالي، فقال: إني رأيتك معي في الجنة، فهذا المحراب لك ولعيالك ولوالديك تجرى عليكم أرزاقكم فكونوا فيه، فقال: أنت نبي من الأنبياء رأيتني معك في الجنة، تريد أن تخرجني منها[١]!!!

وعن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أطيب ما أكل الرجل من كسبه »[٢].

---

(١) هذا من القصص الإسرائيلي، ويبدو عليه أثر الصنعة، ولا يعقل أن يخاطب نبي من أنبياء الله الكرام بمثل هذا الخطاب التوبيخي من عبد يفترض فيه الصلاح والإخلاص.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه- كتاب التجارات- باب الحث على المكاسب(٢/٧٢٣/ح ٢١٣٧) من حديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ» وإسناده صحيح.



وعن عيينة بن حصين[١]، رحمه الله، قال: قال رسول الله ﷺ: أَجَّرَ موسى نفسه لشبع بطنه وعفة فرجه[٢].

وبلغنا أن رجلا قال: يا رسول الله، أي المتاجر تأمرني؟ قال: عليك بالبز، وقال الآخر: عليك بالتبن، فإن رأس ماله يسير، وفضله كثير، فاتجر الرجل بالتبن حتى نما ماله، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني سألتك عن أمر، وأرجو أن يكون الله قد جعل لي فيه البركة، فمرني بتجارة أسني من التبن،

---

(١) عيينة بن حصين - بضم الحاء وفتح الصاد - ابن حذيفة بن بدر الفزاري، راجع في شأنه الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/١٢٤٩).

(٢) روى ابن ماجه في كتاب الرهون عن علي بن رباح قال: سمعت عتبة بن المنذر يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ: (طسم) حتى إذا بلغ قصة موسى قال: إن موسى ﷺ أجر نفسه ثماني سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه، وذكر محققه عن الزوائد: إسناده ضعيف لأن فيه بقية، وهو مدلس، وليس له عند ابن ماجه سوى هذا الحديث، وليس له شيء في بقية الكتب الخمسة (٨١٧/ح٢٤٤٤) وقد ذكر ابن كثير أن هذا الحديث من هذا الوجه ضعيف. تفسير ابن كثير (٣/٣٨٥).

قال: عليك بالبز فإنه مبارك، وهي تجارة أبي إبراهيم عليه السلام [(١)]، وذكر الحديث.

وعن عبد الله بن أبي أوفي[(٢)] رضي الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في المسألة، قال: اذهب إلى سوق الخياطين، وقال بعضهم: إذا قدمت رفقة فاشتروا فأشركهم، فذهب الرجل فلم يلبث أن أصاب غلامًا وبعيرًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أصبت غلامًا

---

(١) راجع كنز العمال(١٩/٤) حيث ذكر رواية الديلمي عن ابن عباس: "عليك بالتبن فإن رأسماله يسير وربحه كثير، وعليك بالبز فإن فيه تسعة أعشار البركة".

(٢) عبد الله بن أبي أوفي الأسلمي، وأبو أوفي هو علقمة بن خالد بن الحارث بن أسد بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن أسلم، وهو أخو زيد بن أبي أوفي، شهد الحديبية وخيبر وما بعد ذلك من المشاهد، ولم يزل بالمدينة حتى قبض رسول الله ﷺ، ثم تحول إلى الكوفة، وهو آخر من بقي بالكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ، مات سنة سبع وثمانين، وقيل سنة ست وثمانين.

وبعيرًا، وإني قد استغنيت بهما، وإني أريد أن ألزمك، فقال: الزم سوقك.

وروي عن الحسن، عن أنس قال: رأى رسول الله ﷺ يد سعد بن معاذ رضي الله عنه مكببة، فقال: ما هذا الاكتباب؟ قال: من ضربي المرو[١] المسجاة في أرضي، فقال: يا سعد، أما أنا فأشهد أن هذه يد لا تمسها النار أبدًا.

وعن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، قال: "جعت مرة بالمدينة جوعًا شديدًا، فخرجت أطلب العمل، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا[٢] تريد بله، فأتيتها فقاطعتها كل ذنوب[٣] بتمرة،

---

(١) المرو: ضروب الصوان، وحجارة بيض رقاق براقة تقدح منها النار.

(٢) المدر: الطين اللزج المتماسك، والقطعة منه: مدرة، وأهل المدر: سكان البيوت المبنية، خلاف البدو سكان الخيام.

(٣) الذنوب: الدلو العظيمة.

فعد ستة عشر ذَنوبا، حتى محلت[١].يداي، فأصبت منه ثم أتيتها، فقلت بيدي هكذا بين يديها، فَعَدَّتْ إلى ست عشرة[٢]تمرة، فأتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته فأكل معي منها.

وعن أنس رضي الله عنه، في حديث: فأمدهم رسول الله ﷺ بسبعين من الأنصار، كانوا يسمون: القراء، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل"[٣]. الحديث.

---

(١) محل المكان -بفتح الحاء وضمها- أجدب، والمقصود أن يديه جفتا وتيبستا من العمل.

(٢) في الأصل: ستة عشر.

(٣) روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه على قومهم، فأمدهم النبي ﷺ بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنا نسميهم القراء ويحطبون بالنهار، ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم، فقنت شهرا يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان ... إلخ (٤/ ٨٨) باب فضل الجهاد والسير، باب العون بالمدد، وانظر أيضا في باب (غزوة الرجيع ورعل وذكوان)(٥/ ١٣٤-١٣٧).

وعن الحسن، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء [١].

وعن عمر رضي الله عنه، قال: يا معشر القراء، ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق، استبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالًا على المسلمين.

---

(١) رواه الترمذي في سننه: حدثنا هناد حدثنا قبيصة عن سفيان عن أبي حمزة عن الحسن عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء.

ثم قال: حدثنا سويد، حدثنا ابن المبارك عن سفيان عن أبي حمزة، بهذا الإسناد نحوه . هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث الثوري عن أبي حمزة أبواب البيوع (٣٤١/٢). وقد رواه ابن ماجه بإسناد فيه كلثوم بن جوش القشيرى، وذكر في الزوائد أنه ضعيف.

عن عمرو بن مرة[١]، عن حذيفة، رضي الله عنه، قال: خياركم من لم يرفض آخرته لدنياه، ومن لم يرفض دنياه لأخرته"[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنه، قال: العبادة عشرة أجزاء، فتسعة في الكسب، وواحد في الصلاة والصوم، وعن ثابت البناني[٣] مثل معناه.

---

(١) عمرو بن مرة الجملي الإمام الحجة من جمل، وجمل من مراد، وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: ثقة يرى الإرجاء، مات سنة ست عشرة ومائة، انظر ميزان الاعتدال (**٣**/٢٨٨/ح**٦٤٤٧**) وتهذيب التهذيب (**٨**/١٠٢).

(٢) ذكر في الجامع الصغير رواية الخطيب عن أنس: خيركم من لم يترك آخرته لدنياه، ولا دنياه لآخرته، ولم يكن كلا على الناس. وقال عنه: إنه صحيح.

(٣) الإمام الحجة القدوة أبو محمد البناني البصري، قال العجلي: ثقة رجل صالح، وقال النسائي: ثقة، وقال أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس: الزهري، ثم ثابت، ثم قتادة، وقال شعبة: كان ثابت يقرأ القرآن في كل يوم وليلة، ويصوم الدهر، وقال ابن حبان في الثقات، كان من أعبد أهل البصرة، وروي غالب القطان عن بكر بن عبد الله قال: من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه فلينظر إلى ثابت البنانى، فما أدركنا الذي هو أعبد منه.

عن الحسن، قال لقمان لابنه: يا بني خذ من الدنيا أخذًا لا يضر بآخرتك، ولا ترفضها كل الرفض فتكون عيالا على الناس، ولكن خذ من الدنيا بلاغا.

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسألة، وسعيا على عياله، وتعطفا على جاره، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا حلالا مرائيا مكاثرًا مفاخرًا، لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان [١].

وعن سفيان قال: مكتوب في التوراة: إذا كان في البيت بر فتعبد، وإن لم يكن فالتمس.

---

(١) راجع كنز العمال (٦/٤)، حيث ذكر رواية أبي نعيم في الحلية لهذا الحديث عن أبي هريرة.

وعن أبي عثمان النهدي[١] قال: "دخل رجل على سلمان رضي الله عنه وهو يعمل الخوص بيده، فقال: تعمل الخوص بيدك، وعطاؤك أربعة آلاف!!! فقال: إني أحببت أن آكل من كسب يدي.

---

(١) هو عبد الرحمن بن مل – بلام ثقيلة والميم مثلثة – ابن عمرو بن عدي بن وهب بن ربيعة بن سعد بن خزيمة أبو عثمان النهدي، أدرك الجاهلية، وأسلم على عهد رسول الله ﷺ ولم يلقه، قال معتمر بن سليمان التيمي عن أبيه: إني لأحسب أن أبا عثمان كان لا يصيب ذنبا، كان ليلة قائما ونهاره صائما، وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: كان ثقة، وقال أبو زرعة والنسائي وابن خراش: ثقة. تهذيب التهذيب (٦/٢٧٧) وذكر في الترجمة رقم ١٠٤٠٤ من ميزان الاعتدال على أنه ثقة إمام.

ربط الأرزاق بالأسباب مع تقديرها أولا

قال أبو عبد الله رحمه الله: إن الله قد أثبت الأرزاق [(١)] في اللوح على المقدار الذي يريد، وعلى كيفية ما يريد، وفي الوقت الذي يريد. والنفس تشتهي شيئا، ربما يوافق ذلك المثبت في اللوح، وربما يخالف[(٢)]، فلو لم تكن هذه الأسباب لكانت النفس تغلي شهوتها، لا تقدر أن ترى ذلك التقدير حسنا، فكان في ذلك فساد[(٣)] لقلوبهم، فجعلت الأسباب الصرف وجوههم عن ذلك المثبت إلى وجوه المطالب والمكاسب، فيرجعوا باللائمة على أنفسهم في ذلك.

وذلك سببه بما كان من سبيل ملك الموت، كان يأتي فيقبض الروح عيانا، فسبوه فشكا إلى الله، فوضعت العلل والأسقام،

---

(١) في الأصل: الأرواح.

(٢) في الأصل: خالف.

(٣) في الأصل: فسادًا.

فالأسباب بمنزلة الأمراض، والرزق بمنزلة الموت، وبدء كليهما من عند الله.

وبين الله شأن المال أنه قوة للدين فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[1].

(١) النساء: ٥.

لا حجة في ترك طلب الرزق

قال له قائل: إن بعض المقبلين على أمر الدين تركوا الطلب، وقالوا: قد ضمن الله الرزق، وجاء عن رسول الله ﷺ: إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله[(١)]، وقال تعالى جده: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: "ها لو لم تأتها لأتتك فقعدوا ينظرون الرزق، ووفاء الضامن لهم بذلك.

---

(١) راجع في هذا الحديث كشف الخفاء (١/ ٢٦٦/ح٧٠٥)، وقد رواه الطبراني عن الحسن بن على بصيغة: ﴿أيها الناس إني والله ما آمركم إلا بما أمركم الله به، ولا أنهاكم إلا عما نهاكم الله عنه، فأجملوا في الطلب، فوالذي نفس أبي القاسم بيده إن أحدكم ليطلبه رزقه كما يطلبه أجله، فإن تعسر عليكم شيء منه فاطلبوه بطاعة الله عز وجل﴾ وذكر في الجامع الصغير روايته للطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل عن أبي الدرداء بصيغة: ﴿إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله". وحسنه(١/ ٦٧).

(٢) الطلاق: ٢-٣.

الفرق بين من قعدوا بغير يقين، وبين من أقعدوا

فقال: قعدوا؟ أو أقعدوا؟ وإن كانوا قعدوا ينبغي لهم أن يقوموا، أن يطلبوا تحرزا من الطمع وفساد القلب، وتحصنا من فتنة النفس أن تحمله الحاجة على تناول الشبهة، و(على) التذلل للأغنياء، فإن لم يفعل أبغضهم، فإن بغضتك[١] إياهم فتنة، ولائمتك لهم أشد فسادًا لقلبك من ذلك المال، وإنما تقطع الطمع أولا بالإقبال على الطلب، فلا تزال تطلب من وجوه المكاسب على ما أمر الله، وتستعمل فيه الورع والتقوى، فتصبح وتمسي مجاهدًا لنفسك في طلب الحلال.

فأي عبادة أفضل من ذلك؟ هل يدانيه صوم أو صلاة، أو شيء من أعمال البر؟ و(قد) أسكنت شدة طمعك وقوته، فبعد هذا تصل إلى أعمال أهل اليقين، فإذا أيقنت انقطع طمعك أصلا،

---

(١) في الأصل: بغضته، وما أثبته أليق بالسياق.

وسكن قلبك إلى من بيده ملكوت كل شيء، الذي قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[١]، فرأيت باطن هذه الكلمة، فحينئذ حققت الإياس مما في أيدي الناس.

فأما إذا أردت (في) ابتداء هذا الأمر أن تدرك قلوب الموقنين، والشهوات في قلبك، فهذا ما لا يكون، وكيف يكون اليقين في قلب، وفيه ظل الشيطان باق، وهو الهوى؟!!

---

(١) [الفرقان: ٥٨].

وصف الذين قعدوا

فإذا تركت طلب المعاش قبل استقرار اليقين، رمت بك نفسك في أودية المهالك ولا تشعر، وتضيع حق الزوجة والولد، وتزعم أن أرزاقهم على الله، وأين حكم في تنزيله ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾[(١)]، وقال في شأن الرضاع: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[(٢)]، فهذا تارك للسبيل والسنة، يعيش في عناء، ويموت ظالمًا طامعًا قاطعًا للحقوق على أهله، وقد روي عن رسول الله ﷺ: (كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت)[(٣)]، وإن كانوا أقعدوا فإنهم يكفون مئونته.

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢)الطلاق: ٦. والآية هي: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾.

(٣)رواه أحمد في مسنده والبيهقي في سننه وأبو داود عن ابن عمرو، ذكره في الجامع الصغير، وقال: صحيح (١/١٧٥) وقد رواه الحاكم في مستدركه ووافقه الذهبي (١/٤١٥).

أثر الكسب الحلال في تحصيل محامد الخلال

قال له قائل: ما معنى قولك قعدوا وأقعدوا؟ (قال): أما قعدوا، فهم قوم عند مبتدأ أمرهم، لما شموا شيئا من رائحة الطاعة كسلوا عن الكسب، وتوسع عليهم في المعاش، وأقبلت الدنيا عليهم لما رئي عليهم أثر الطاعة، فاحترقوا فيها ولم يشعروا، لأن قلوبهم مائلة لمن أكرمهم بالنوال والعطية، وحرموا بركة المجاهدة في الكسب والبر والتقوى، وحرموا التخلق بأخلاق الكرام، من حسن المعاشرة مع الناس في السخاوة معهم، والبشر والسهولة في الأداء والاقتضاء، والبيع والشراء، والقيام بالوفاء في الوعد، والكيل والوزن، وحفظ الحدود، فهذا كله عبادة ورياضة نفس.

وذهبوا، وتخلوا من هذا الخير كله، فتكلفوا القعود قبل أوانه، وآثروا كثرة النوم،وطلب الراحة،فالواجب عليهم القيام والسعي.

الاحتجاج بفساد الزمان وفساد المكاسب

فإن قيل: فسدت المكاسب، وفسد الناس، وذهبت الأمانة، قيل لهم: فأنتم الهراب من مجاهدة النفس، فكيف يصلح من هرب من مجاهدة النفس و(مكابدة) الشدة، ومقاساة الغموم في دين الله؟!!

وصف الذين أقعدوا

وأما الذين أقعدوا، فقوم كان سبيلهم منذ تابوا ما وصفنا من الجهد في حفظ الحدود مع الله في طلب المكاسب، وركبوا صعاب الأمور، ودققوا النظر، فتورعوا عن كثير من الحلال مخافة الشبهة، فلم يزل الله لهم معينا ومؤيدا في ذلك، منجزًا لوعده، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، فصبروا على الذل والفقر ومقاساة الجهد والهموم في شأن الطلب، وتحصنوا من آفات الطمع، وأدوا حق العيال، ووصلوا - من القليل- الأرحام، وواسوا الإخوان، وعطفوا على اليتامى والفقراء والمساكين والأرامل(٢).

فهؤلاء قوم على سبيل الصدق والوفاء، يتقون ما حذرهم، ويؤدون حقوق أهل التبعة، ويحفظون الجوارح في ذلك، فكل

---

(١) الروم: ٤٧.

(٢) في الأصل: والأرملة.



هذه فروض يؤدونها، ثم بعد ذلك تنفلوا، بأن واسوا الإخوان، وتعطفوا على الأرملة واليتيم، ووصلوا الأرحام، ومع ذلك أطاعوا الله في سائر الأمور، فهداهم ربهم إلى سبيله، كما وعد فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١]، لأنهم أدوا حقوق المجاهدة لما تقدم إليهم في بدء[٢] الأمر، فقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[٣]. فلما قاموا بحق المجاهدة، وفي لهم بما وعد من قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فهداهم واصطفاهم، وقبلهم، فشغلهم بنفسه.

فهم المحررون، عتقاء الرحمن من شهوات النفوس ولذاتها؛ لأن القلب إذا شغل بشيء ذهل عما سواه، فكيف إذا اشتغل برب الأشياء؟!!

---

(١) العنكبوت: ٦٩

(٢) في الأصل: بدو.

(٣) الحج: ٧٨

ففتح الله على قلوبهم من ملكه ما نسوا في جنبه كل مذكور، وذلك ما روي عن رسول الله ﷺ، فيما يروى عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل أنه قال: ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء فرائضي، وإنه ليتقرب إلى بعد ذلك بالنوافل حتى أحبه"(١). الخبر"، فهذا حاله مع ربه عز وجل، فهو الذي من في السموات والأرض رزقه، فهم الذين أقعدوا.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه(٨/١٠٥/ح٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" كتاب الرقاق- باب التواضع، وكذلك في كتاب الأدب.

وذكر في ميزان الاعتدال أنه مما انفرد به البخاري عن ابن كرامة عن خالد بن مخلد، ثم قال: ولم يرد هذا المتن إلا بهذا الإسناد،ولا خرجه من عدا البخاري،ولا أظنه في مسند أحمد.

مكان المبتدئين من طلب الرزق

فأما الذين قعدوا تكلفا، ومراجل الشهوات تغلى، وتراكم الهوى كسحابة [١] مظلمة، فقد أحرق نفسه وعاش في عمي، لا يخرج من ظلمة إلا وقع في أخرى، وبان من الصدق بونا بعيدا، وصار مسبة الصديقين فكلما ذكر صديق بسوء فإنما يذكر هو، لما رئي من ظاهر هذا المخادع[٢] فيقال لهذا: أطلبت المعاش كما أمرت؟ فلم يأمرك أن تبتغيه من الله عز وجل، إنما قال: ابتغه من فضل الله، أي اضرب في الأرض هكذا وهكذا على وجوه الطلب، لأنه مقلب القلوب، فيهدي ويسوق ويخلى ويضرب،

---

(١) في الأصل: فسحابة.

(٢) في المطبوعة (فكما ذكر صديق بسوء ... الخ) يريد - والله أعلم: أن من تكلف القعود عن طلب الرزق وتظاهر بالصديقية إنما هو مخادع يتسبب في سب الناس للصديقين لما يرونه عليه، أو أن حاله لا يخفى على الصديقين فما يلوم الصديق أحداً إلا هذا المخادع.

ويرين على القلوب حتى يوصل ذلك إليك، فذلك فضله عليك.

فقعد هذا بغليان مرجله وهواه المظلم، فقال: أنا أبتغي من الله حتى يرزقني كما ضمن، فما يدريك كيف ضمن؟ وإنما ضمن الأرزاق جملة، فمنها في يسر وراحة، ومنها في عسر وشدة، فكيف تخطيت إلى الراحة دون الشدة؟ فيا ترى متى وجبت لك هذه الحرمة عنده؟ بأي وجه؟ أو بأي حرمة؟ وبأي بذل نفس ويقين وطمأنينة حتى تبتغي منه؟ وإنما أمرت بالضرب في الأرض والابتغاء من فضله.

مكان الصديقين من طلب الرزق

وإنما توجب هذه الحرمة لمن عنده تحرير الزاهدين، وخشية الورعين، وفرق المتقين، وقلق الخائفين، وحرقة المشتاقين، وأنس المخبتين، ومراقبة العارفين، ونهمة الوالهين.

وإنما يسوق الرزق من غير مئونة وطلب إلى من نسي الرزق وذهل عنه شغلا بربه، وإلى من وثق به من غير جهة الضمان، لأنه لما عرفه برًا لطيفًا، وبه رؤوفًا رحيمًا، وعرفه حنانًا ومنانًا، وعرفه بالمعروف وكرم الصفح، وكرم المعاملة، وجود العطايا، واستقرت هذه المعرفة في قلبه، أمله بخير الدنيا والآخرة، فعظم أمله، وحسن ظنه به، واستحي منه أن يضطرب قلبه عليه من سوء الظن به، فأمن خوف فوت الرزق، أو إتعابه فيه، فوفي له بذلك.

مكان الزاهدين من طلب الرزق

الزاهدون على ثقة من ربهم في شأن الرزق، فسكنت قلوبهم، وأمنت القوت، ولكن هناك بقية اضطراب، ذاك لأن نفوسهم تريد شيئا، وكائن أن يكون في التقدير خلاف ذلك مما لا يوافق النفس، فتضطرب من أجل ذلك.

مثل الزاهدين والصديقين

والصديقون اطمأنت قلوبهم، فلم يبق هناك اضطراب، لحسن ظنهم بربهم، بمنزلة رجل له عبدان، فأراد أن يغيب إلى موضع فأخرج رزق أحد العبدين، فوضعه على يد أمين ثقة، لينفق عليه، وأخرج رزق الآخر فوضعه على يد أبويه.

فالأول: أمن فوت الرزق، لأنه قد وضعه على يدي ثقة، ولا يأمن أحوال إجراء الرزق، لأنه لا يدري كيفيته من التأخير والتعجيل والمقدار، فهو في اضطراب.

والثاني: وضع رزقه عند أبويه، فأمن جميع الوجوه، ولم يبق اضطراب لحسن ظنه بأبويه.

رزق رسول الله ﷺ

ونظرنا في رزق الرسول ﷺ، فوجدنا له ثلاثة أحوال:

(المنزلة الأولى): منها في بدء[١] النبوة كان يتجر وهو بمكة، حتى عيره المشركون: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[٢] فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾[٣] إلا هكذا[٤].

---

(١) في الأصل: بدو.

(٢) الفرقان: ٧، ٨.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) أي ما أرسلنا رسولا إلا هكذا: يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

ومنَّ الله عليه بمال خديجة رضي الله عنها، ثم عدده عليه في كتابه في النعم فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[١]، فهذا كان رزقه من قبل مبعثه إلى أن مضت سنة وزيادة من الهجرة، حتى وجدنا فيما حدثنا به الجارود[٢]، عن وكيع، عن شريك[٣]، عن سماك[٤]،

---

(١) الضحى: ٨.

(٢) هو الجارود بن معاذ السلمي (أبو داود)، ويقال أبو معاذ الترمذي، ذكر ابن حجر فيمن روى عنه الترمذي والنسائي، ومحمد بن على (الحكيم الترمذي) صاحب هذه الرسالة، قال النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: مستقيم الحديث، قال أبو القاسم بن عساكر؛ مات(٢٤٤).

(٣) هو شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي، أبو عبد الله الكوفي القاضي الحافظ الصادق أحد الأئمة، قال ابن معين: صدوق ثقة إلا أنه خالف فغيره أحب إلينا منه. انظر ميزان الاعتدال(٢/ ٢٧٠/ ٣٦٩٧) وتهذيب التهذيب(٤/ ٣٣٣).

(٤) هو سماك بن حرب، أبو المغيرة الهذلي الكوفي صدوق صالح، من أوعية العلم، مشهور، قال العجلي: جائز الحديث، كان الثوري يضعفه قليلا، وقال ابن المديني: روايته عن عكرمة مضطربة، فسفيان وشعبة يجعلونها عن عكرمة، وأبو الأحوص وإسرائيل يجعلونها عن ابن عباس، وقال يعقوب بن شيبة: هو في غير عكرمة صالح، وليس من المتثبتين، ميزان الاعتدال (٢/ ٢٣٢/ ٣٥٤٨) وتهذيب التهذيب (٤/ ٢٣٢).

عن عكرمة[١]، عن ابن عباس، قال: "قدمت عير المدينة فاشترى رسول الله ﷺ منه، فربح أواقي فقسمها بين أرامل بني عبد المطلب، وقال: لا أشتري بعد هذا شيئا ليس عندي ثمنه[٢].

---

(١) عكرمة مولى ابن عباس أبو عبد الله المدني وأصله من البربر أحد أوعية العلم، تكلم فيه لرأيه لا لعلمه، فاتهم برأي الخوارج، وثقه جماعة، واعتمده البخاري، وتجنبه مسلم، وروى له قليلا مقرونا بغيره، وأعرض عنه مالك، إلا في حديث أو حديثين، قال ابن المديني: كان يرى رأي نجدة الحروري، وقال مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأي الخوارج، قال: وادعي على ابن عباس أنه كان يرى رأي الخوارج، وعن عطاء بن رباح: أن عكرمة كان إباضية، وقال أبو طالب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان عكرمة من أعلم الناس، ولكنه كان يرى رأي الصفرية، وعن أبي بكر بن أبي سبرة قال: باع علي بن عبد الله بن عباس عكرمة لخالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار، فقال له عكرمة: ما خير لك؟ بعت علم أبيك! فاستقاله فأقاله وأعتقه. ميزان الاعتدال (**٣/٩٣/٥٧١٩**) وتهذيب التهذيب (**٧/٢٦٣**).

(٢) ذكر في الجامع الصغير رواية أحمد بن حنبل في مسنده والحاكم في مستدركه عن ابن عباس، وقال عنه: إنه صحيح (**٢/١٨٧**) راجع أيضا كنز العمال صـ**٤٢**..

(المنزلة الثانية): ومنزلة أخرى بعد الهجرة، أذن له في القتال، ونشبت الحرب بينه وبين الكفار، وأحل الله له ولأمته الغنيمة، وأنزل عليه في التنزيل:﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلًا طَيِّبًا ﴾(١)، فهذا الحلال الذي عليه خاتم رب العالمين، فقوله: "طيبا"، فلم يكن عندهم شيء أحل ولا أطيب منه، فقال ﷺ: (جعل رزقي تحت ظل رمحي وسيفي)(٢) فهذه منزلة ثانية.

---

(١) الأنفال: ٦٩.

(٢) خرجه أحمد في مسنده (٩/١٢٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، وإسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه، وعلى فرض صحته فالمعنى يشير إلى أن الرزق والعيش لا يكونان إلا في وجود الأمن والاستقرار فهما مرتبطان ارتباطًا وثيقًا ، وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيف ليدفع عمن أراد أن يدخل في دين الله تعالى فظُلِم من أجل دخوله وتحقيق العدل الذي سيرفضه حتمًا كثير من الناس . (يراجع: فتح الباري: (١/ ٩٩)، مسند أحمد (٩/١٢٣) .

(المنزلة الثالثة): والمنزلة الثالثة أنه لما هذبه وطهره وقوَّم أخلاقه، وبلغ به من الدين الدرجة التي ساد (بها) ولد آدم كلهم حتى جاز أن يقول: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)(١)، وإنما -فيما بلغنا- أنه بلغنا أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام وفيه مائة خلق، فهو كمال المروءة، ثم بعث الرسل والأنبياء، وفي كل منهم بعض تلك الأخلاق، وسقط عنهم بعض ذلك(٢)، فروى

---

(١) أخرج ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع، ولا فخر، لواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر. كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة(/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٨)، وكذلك رواه أحمد والترمذي، ورواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع - كتاب الفضائل (١٧٨٢/ ٢٢٧٨). وكذلك رواه أبو داود، كما روى عند غيرهم بصيغ أخرى، انظر كشف الخفاء (٢٣٤/ ٦١٦).

(٢) ذكر في الجامع الصغير أن البخاري رواه في الأدب، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة، وقال حديث صحيح (١/ ٨٦)، وقد=

عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[1] روي ذلك عن أبي هريرة، فإذا قال: بعثت بهذا فاعلم أنه وجب عليه إتمامه، فلا يتوهم عليه أنه خرج من الدنيا ولم يتممه، فإذا تممه فإنما أخذ بأخلاق الأنبياء، وما سقط عنهم أيضا، فحينئذ استوجب من الله تعالى الثناء، فأثنى الله تعالى عليه، فقال بعدما أقسم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] فقالوا: خلق القرآن، وخلق القرآن يجمع التوراة والإنجيل، ويفصل المفصل أيضًا، وأقسم

=روى مالك في الموطأ بلاغا في حسن الخلق أن رسول الله ﷺ قال: بعثت لأتمم حسن الأخلاق كما رواه أحمد عن أبي هريرة بسند حسن . انظر تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى وإنك لعلى خلق عظيم.

(١) ينبغي أن يفهم هذا اللفظ على غير ظاهرة المتبادر فنحن نجل أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام عن مثل هذا الظاهر، وإنما يكون المقصود أنهم لم يبلغوا من تمام هذه الأخلاق ما بلغه خاتم النبيين ﷺ.

(٢) القلم: ٤.

بحياته فقال: (لعمرك)[١] لأن من تخلق بالقرآن عظم خطبه، فبذلك استحق الدرجة الوسيلة، التي هي جنة عدن، التي لا يفوقه أحد إلا حملة العرش، ويكون أقرب الناس إلى ربه يوم الموقف وفي الجنة، وبعثه المقام المحمود، وغفر له ما تقدم وما تأخر، لأنه انقاد له انقيادًا لم يدركه أحد.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت:كان خلقه(القرآن) يرضى برضاه، ويسخط بسخطه[٢].

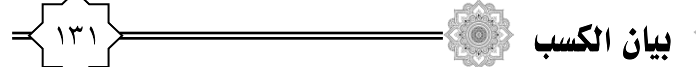
---

(١) الحجر: ٧٢.

(٢) لهذا الحديث عدة روايات، راجع فيها تفسير ابن كثير عند قوله تعالى (وإنك العلى خلق عظيم) وقد قال: وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث قتادة بطوله، وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا يونس عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. وقد روى أبو داود والنسائي من حديث الحسن نحوه، ثم قال: ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرأ ونهيأ سجية له وخلقا تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل اهـ.

فلما قام في هذه المرتبة جعل له طعمة منه، (حيث) قذف الرعب -وهو أعظم جنود الله فيما يقال - في قلوب أهل فدك، وقريظة، والنضير، حتى خربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، ثم سلط رسوله على ذلك من غير تعب ولا حرب ولا مئونة، فكان منها رزقه إلى أن قبض صلوات الله عليه.

فهذا أهنأ من الغنيمة التي وقعت فيها المقاسم، وشاركت الأيدي فيها، والغنيمة كانت أهنأ من التجارة التي كانت في مبتدأ نبوته، وكلما ازداد صفاء وانقيادًا زاده الله هناء وطيبًا ويسرًا في شأن دنياه، وقربة ورفعة ودرجة في الآخرة، فعل الله هذا به، وليرى المؤمنون ذلك، فيكون هذا الفعل مثلا لهم، وأن تبلغ مراتبهم هناك.



ليس اليسر والعسر بالكثرة والقلة

قال قائل: فالرسول ﷺ كان ربما جاع حتى يربط الحجر والحجرين على بطنه، وكذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

فقال: إن اليسر ليس في الكثرة والقلة، كذلك شأن النبي ﷺ، كان لا يصيب إلا ما قدر له، كذلك كان (ما) قسم له من الرزق، وكلٌ إنما يصيب من رزقه ما قدر له، فهو رزقه، ومالم يقدر له فليس هو برزق له؟

والرزق: هو رمي الشيء إليك من طريق القضاء، تقول العرب: زرق، ورزق، فقوله: زرق بالمرزاق أي: رماه به حتى حل به، وبتقديم الراء: رماه من طريق القضاء والقدر، ولكن المطيع تيسر عليه، لأن قلبه موقن مطمئن، فهو في راحة، وذلك قول

الرسول ﷺ: من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه(١).

والذي هو في تعب ونصب، وإنما دخل التعب والنصب عليه من قبل فساد القلب، لأنه لما ضعف اليقين اضطرب القلب، فأحزنه بطؤه عنه، وانكسر لقلته، وأنه لم يجيء على شهوته، فقلبه أبدًا مغموم مهموم حزين، آسف من خوف فوت شيء لا يدري قدر له أم لا.

---

(١) جاء في سنن الترمذي عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك، وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. باب ما في الزهادة (٤./٣) وقد رواه ابن ماجه بنحو ذلك، وقال: قال هشام: قال أبو إدريس الخولاني، يقول: مثل هذا الحديث في الأحاديث كمثل الإبريز في الذهب.

لماذا أقسم الله على ضمان الرزق

قال له قائل: فإذا ضمن الله الرزق، بعد أن قدر ذلك في الذكر الحكيم، ثم أقسم على ذلك؟ قال: المعنيين: أحدهما: أن يكون تطييبًا لنفسه، وسكونا لها، لئلا تفتتن، لأن النفس في ظلمة ومن ظلمة، فإذا رأى ذلك سكن -وليست على يقين -كالمنخدع.

وذلك قول سلمان رضي الله عنه، حيث رؤى يحمل طعاما على ظهره، فقيل له أتحرز هذا كله يا أبا عبد الله؟ إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت [١].

فإنما ذكر النفس، ولم يذكر القلب لأن القلب والعقل يشهد بأن الرزق عند الله، فأحرز سلمان رضي الله عنه لها كيلا تضطرب

---

(١) ونفهم سر هذا التفريق بين النفس والقلب، لأن النفس عند الحكيم الترمذي هي مصدر الرغبات والشهوات دون مبالاة أو مراعاة لحد من حدود الله، أما القلب، فإنه مهبط أنوار الله، والمعركة بينه وبين النفس قائمة حتى يتغلب أحد الطرفين ويصبح هو أمير المملكة في الإنسان.

فينجو من وسوستها، وكأنه خدعها وغرها، فألقي سببا مجموعًا إليها كي تسكن، ويريها أن هذا رزقها، فإن رجع سلمان رضي الله عنه، إلى العقل والقلب، أليس كان موقنا أنه لا يعلم أن هذا رزقه: ومن أين يدري من أين رزقه: ومتى يصل إليه ولو وضع[1] جبلا من ذهب؟ فذلك فعل سلمان رضي الله عنه ومن قبله وبعده، أن (في) هذا تسكينا للنفوس، وقطعا لوسوستها.

والذي يعلم أن الله تعالى إنما أكد الرزق في أي من كتابه لقطع الوسواس وليتفرغ القلب لحفظ حدوده، وأداء فرائضه، فيحسن عبادته ويتدبر آياته، وكذلك أمرهم بالتوكل والتفويض، فيستريح القلب من الأشغال، فإن القلب إذا خلص من أشغال النفس بالتفويض والتوكل، وسكن الاضطراب، حينئذ يصل إلى صفوة العبودية، ويطلع على باطن

(١) أي ولو جمع وحاز جبلا من ذهب.

تنزيله، ويجد حلاوة الطاعات، ويقف على الرضا، ويقبل منه النعم والأيادي والمنن، وكل قلب مشغول بشهوات النفس ومناها، وخوف فوت الرزق الذي قدره هو لنفسه وتمناه، وقد أثبت في اللوح المحفوظ خلافه، فهو ساقط حرام عليه أن يصل إلى ما وصفنا، وأما المعنى الآخر: فإنه إذا طلب هذا الشيء فاجتمع له أمسكه، فما كان منه رزقه، فإنه ييسر عليه الإنفاق(١).

---

(١) أي أن شعور الإنسان بضمان الرزق من الله يجعل من اليسير عليه أن ينفق مما آتاه الله في سبيله، لأنه واثق أن ذلك لا ينقص شيئا من رزقه الذي قدره الله له، فيتيسر عليه الإنفاق ثقة واعتمادا على ضمان الله عز وجل.

تم الكتاب بعون الله تعالى ومنه

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله

وصحبه وسلامه.

فهرست الموضوعات